الباب الثالث

في عوائد الروس وأخلاقهم وملابسهم وأعيادهم

وأديانهم وحظوظهم وتقدمهم في العلوم والفنون وغير ذلك

الفصل الأول: عادات الروس.

الفصل الثاني: في ملابس الروس

الفصل الثالث: في دين الروس.

الفصل الرابع: في الزواج.

الفصل الخامس: في التعميد ويوم الولادة والاسم والدفن.

الفصل السادس: في أعياد الروس.

الفصل السابع: في الحظ العمومي.

الفصل الثامن: في تقدمهم في العلوم والفنون.

الفصل التاسع: في سكنى الروس ومعيشتهم ومركوبهم.

الفصل العاشر: في لسان الروس.

الباب الثالث

في عوائد الروس وأخلاقهم وملابسهم وأعيادهم وأديانهم وحظوظهم وتقدمهم في العلوم والفنون وغير ذلك.

وفيه فصول

الفصل الأول

اعلم أن عادة الروس وأخلاقهم الكرم والإنفاق وحب معاشرة الناس، خصوصًا من مدة ما تقدموا في التمدن والعلوم، وصدقت فيهم فراسة بطرس الكبير، ويميلون إلى الفخر والكبر، قال العلائي في أخلاق طائفة الروس: موصوفة بحسن الشكل، وبياض اللون، وقابلية الصنائع، ولطافة الخدمة، وإطاعة السيد، وقلة العبادة، وقلة الصلاح، وكثرة الآباق، وفي القديم كانوا مشهورين بالجبن حتى استعبدهم التاتار حينًا، لكن الآن انعكست القضية، وصار التاتار مذعنين لهم ومن رعاياهم.

وليس الناس عندهم رتبة واحدة، بل مراتب:

الأولى: الأعيان، وهذه الرتبة متوارثة، فابن أحد الأعيان يعد منهم، وأصحاب هذه الرتبة يتميزون جدًا، بحيث يجوز لهم شراء الأراضي والعبيد، ولا يحرمون من مجالس الشرف، وإذا تزوج أحدهم بامرأة دون مقامه رفع رتبتها وتسمت باسمه، ثم إن هذه الرتبة تنقسم إلى قسمين:

أعيان أعيان: وهم من كانوا أعيانًا قبل زمان بطرس، وتوجد أسماؤهم في الكتاب الثَّالث.

وأعيان: وهم من بعد بطرس، وتوجد أسماؤهم في الكتاب[٨٢/أ] السَّادس؛ مثلًا في تربية بنات الأعيان في دير اسمولني، يشترط إن لم يكن إذن مخصوص من القيصر، أن تكون من أعيان الأعيان، وإذا دخل أحد الأعيان طوعًا في النِّظام دخل مثل تحت ضابط، وبعد سنتين يصير ضابطًا.

الثَّانية: الأعيان الذين لا يتوارث رتبتهم، وهم الغرباء والمستخدمون ونحوهم، الذين أنعم عليهم القيصر بالنشانات، فإذا نالوا رتبة من القيصر عدوا من الأعيان المتوارثة رتبهم، ولهم اشتراء الأرض والعبيد الروسية إلا في اختلاف الدين، فيمنع دخول الروسي في فلك المسلم، كما أن العبد المسلم يمنع شرعًا دخوله في ملك النصراني ومخالف الدين.

الثَّالثة: التُّجار، لا يعدون في الروسيا من الأعيان، فالتاجر، ولو ملك ملايين لا يُعد من أهل هذه الرتبة، وإذا تزوج واحدة من الأعيان حطَّ رتبتها، وصارت تُعد من التُّجار؛ لأن الزوجة تابعة لزوجها في الشرف والخسة، وبنت الأعيان لا تتزوج التاجر إلا بسبب غناه، كما أن أحد الأعيان لا يتزوج التاجرة إلا لغناها، فيختارون التمتع بلذة العيش، ولا يبالون بفقد الكفاءة، وللّه القائل[1]:

قالوا الكفاءة ستة فأجبتهم ... إن الكفاءة في يسار الدرهم

وربما ترقى التَّاجر إلى رتبة الأعيان، لكن إذا ظهر استحقاقه بأن فعل أمورًا مهمة للمملكة، لكن هذا نادر، ولا يؤخذ من التجار، ولا من أولادهم نظام؛ بل يدفعون الفردة فقط إلَّا إذا فلس التَّاجر، وعجز عن الدفع، فيصير من أولاد البلد، وهذه المزية ليست متوارثة، فإذا مات التاجر قام مقامه ابنه في الدفع، فإن كان عاجزًا حرم[٨٢/ظ] من هذه المزية، والتاجر إذا دخل طوعًا في النظام دخل

(١) هو: مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن يوسف الكرمي المقدسي الأزهري، زين الدين، نسبة لطور كرم، قرية بقرب نابلس، توفي سنة ١٠٣٣هـ. محمد بن أمين المحبي: نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، ج٢، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٧، ص ص ٢٤٤- ٢٥٠؛ ومحمد ابن حميد النجدي: السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة، تحقيق: بكر بن عبدالله أبو زيد، د. عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، ج٣، مؤسسة الرسالة، ط١ ١٩٩٦، ص ص ١١١٨- ١١٢٥.

تحت ضابط، وبعد ثلاث سنين من الخدمة يصير ضابطًا، وللتجار والأعيان الخروج من النظام متى أرادوا، وللتجار إبقاء ذقونهم.

الرابعة: أولاد البلد، وإذا ترقوا إلى التجار، أو نزلوا إلى النَّظام فلهم حكمهم.

الخامسة: الفلَّاحون إذا أخذوا في النظام، فلهم حكمهم، وإلا فلا يترقون إلى الرتبة الأولى.

السَّادسة: العسكر، لكن إذا ترقى العسكري إلى مرتبة يستحق فيها كسوة الأكتاف بالقصب صار من الأعيان، وذلك أنه لا بد أن يخدم ١٥ سنة، فإذا كان حسن السلوك ربما ترقَّى إلى مرتبة تحت الضابط، ثم إلى مرتبة الضابط، ومن خدم ١٥ سنة له الخروج من النظام إن أراد.

السَّابعة: الأرقاء، ولا يجوز لكل أحد شراء الأرقاء كما عندنا، بل بشروط:

أن يكون المشتري من أعيان الروس، وأن يكونوا تبعًا للأرض، فليس للأرقاء سوق يباعون فيه، إنما بيعهم تبعًا للأرض، وتارة يباعون بالاستغلال، و يجوز إعتاقهم، ومنهم من يشتري نفسه كالمكاتب.

ولا يصير الرقيق بعد العتق من الأعيان إلا إذا صار عسكريًا وترقى، ثم إن الأعيان لابد لهم من التربية والتعليم الذي يكتسبون به الرتب، فإذا تعلموا في المدرسة الكبرى و نحوها حتى وصلوا إلى درجة «كانديتات» يعني النجيب، فحينئذ يكونون من الصنف العاشر، هذا إن أحسنوا الجواب في البحث، وإن قصروا قليلاً فيعطون درجة التلميذ المجتهد، وإلا فلا يستحقون شيئًا، وإن تعلموا في المدارس الصغيرة لا يستحقون هذه الرُتبة، و يخدمون بلا رتبة حتى يعطى لهم رتبة، وأول المراتب الصنف الرابع عشر، ثم يترقون حتى إلى رتبة الجنرالات.

وكذلك أولاد التُجار إن تعلموا في المدرسة الكبيرة، وبلغوا رتبة النجيب، [٨٣/و] ثم النجيب إذا اجتهد، وكتب شيئًا في العلوم، وعمل بحثًا

وناقشه العلماء، وأحسن الجواب وصل إلى رتبة ماجيستر، يعني عالم فيكون من الصنف التاسع، ثم إذا اجتهد أيضًا، وكتب أيضًا، وعمل بحثًا ثالثًا، ونوقش ومَهَر، وصل إلى رتبة دوكتور، يعني فاضل، فيكون من الصنف الثامن، ثم إذا خدم ترقى بالخدمة إلى الصنف السابع، وهكذا، والفاضل يمكن له أن يكون مدرسًا أولاً، وثانيًا، يعني عاديًا وخارجًا عن العادة.

هكذا كله في الرُتبة المكتسبة من التعليم، وقد يصل النجيب بواسطة الخدمة إلى هذه المراتب، فيكون جنرالًا، وإن لم يكن عالمًا ولا فاضلًا، وأما وصول غير النجيب فيمكن، لكن لا كالنجيب إلا نادرًا، والنشانات يعطيها القيصر بعرض الوزراء لمن يستحقها بسبب التقدم والتمييز، وهي كثيرة، منها نشان ستانيسلاف وحنة وفلاديمير، وشريط الأول بحاشية بيضاء، والثاني بحاشية صفراء، والثالث بحاشية سوداء، وكلها حمر، والشريط للرتبة الأخيرة صغير يعلق على الصدر، وللرتبة الأولى طويل يعلق كالحمالة، ولا يعطى إلا للجنرالات، وللرتبة الوسطى كالقلادة في العنق، وقد أنعم عليَّ القيصر بالنشانين الأولين، وقلد بهما عنقي بسبب امتياز التلامذة في البحث، وقلت حين قبلت الثاني مورِّيًا:

إني رأيت عجيبًا
في بتر بورغ وإنه
شيخ من المسلمين
يضم في الصدر حَنهْ

وقد أنعم عليَّ القيصر أيضًا في البحث الثالث بخاتم مرصع بالألماس الغالي، وفيه أول اسمه العالي، [٨٣/أ ظ] وقد تنبه القيصر إلى أن المسلمين لا يحبون التصوير الذي في النشانات، فأمر بتغير الصور الموجودة في النشانات المعطاة لهم، فأقام مقامها صورة النسر هذا، وقد قلدنا الأوربيين في إعطاء الرتب والنشانات للمستخدمين، لكن إلى الآن ما فعلنا ذلك مع «التلاميذ والمعلمين»، فأي مانع من ذلك، بل المقتضى موجود، وهو تحريض التلامذة على التعليم، مثلًا إذا فرغ الصبي التعليم في المكتب، ودخل في المدرسة لتعليم العلوم، فبعد أربع

سنين إن شهد له شيوخه بالنجابة سميَّ «نجيبًا»، ولا بأس بعمل بحث لذلك، وإعطائه ثبتًا وإجازة لكن في كاغد منشن، ثم إن استمر فبعد سنة مثلًا أو سنتين يعطى رتبة العالم ثم الفاضل، والفاضل له رتبة المدرس الأول والثاني، وغيره رتبة المعلم أو المعين.

ثم حيث نوعنا المراتب، فلِمَ لا نخص كل رتبة بلفظ، فنعطي مثلًا للجنرالات لفظة «الجناب»، وللوزراء لفظة «السعادة»، ولشاهزاده وعائلة الملك لفظة «السيادة»، وللسُلطان لفظة «الأبهة»، و نحن إلى الآن ما فعلنا ذلك، بل نقول لكل الناس حضرة الجناب العالي، ونستعمل لفظ الحضرة التي تستعمل حتى في جانب اللّه والرسول (صلى اللّه عليه وسلم)، ونبتذلها جدًا كأننا نظرنا للقائل[1] :

[الوافر]

إذا شوركت في وصفٍ بدون ... فلا يلحقك عارٌ أو نفورُ
ففي الحيوان يشترك اضطرارًا[2] ... أرسطاليس والكلب العقور

لكن هذا شيء آخر؛ لأننا لا نقول لأرسطاليس حيوان، ولا يحسن أيضًا أن ننظر لقول الآخر:

---

(١) هو: سعد بن محمد بن سعد الصيفي التميمي، شهاب الدين، أبو الفوارس، المعروف بـ حَيْصَ بَيْص. توفي سنة ٥٧٣هـ. العماد الأصبهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، (القسم العراقي)، تحقيق: محمد بهجت الأثري، ج١، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٥، ص ص ٢٠٢- ٣٦٦؛ و ياقوت الحموي: معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، ج ١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٣ ، ص ص ١٣٥٢- ١٣٥٥؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ص ٣٦٢- ٣٦٥؛ وانظر الأبيات في: ديوان حيص بيص: تشارك الحياة بغير تخلف، تحقيق: مكي السيد جاسم، شاكر هادي، ج٢، العراق، منشورات وزارة الإعلام، ١٩٧٤، ص ٣٤٦.

(٢) هو: نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي الأزهري، أبو الفتوح، المعروف بابن قلاقس، توفي سنة ٥٦٧هـ. العماد الأصفهاني (الأصبهاني): خريدة القصر(قسم شعراء مصر)، تحقيق: أحمد أمين وآخرون، ج١، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥ ، ص ص ١٤٥-١٦٥ ، والبيت في المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٣؛ و ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ٥، ص ص ٣٨٥- ٣٨٩.

العبـد عبـد وإن تسـامى والمـولى مـولى ولـو تنـزّل

[٨٤/و] لأن هـذا في تسـامي العبد نفسـه، وتنـزل المولى وتواضعـه، وأمّا من طرفنـا فيليق أن لا نرفع العبد فوق مقامه، ولا ننـزل المولى عن رتبته، إنما المقام الذي نحن فيه من باب قول القائل[1]:

[البسيط]

اجعل لكل مكان ما يناسبه فإن للزند حليًا ليس للعنق

(١) هو: : نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي الأزهري، أبو الفتوح، المعروف بابن قلاقس، توفي سـنة ٥٦٧هـ. العماد الأصفهاني (الأصبهاني): خريدة القصر(قسـم شعراء مصـر)، تحقيق: أحمـد أمين وآخرون، ج١، القاهرة، دار الكتـب والوثائق القومية، ٢٠٠٥ ، ص ص ١٤٥-١٦٥ ، والبيت في المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٣؛ و ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ٥، ص ص ٣٨٥- ٣٨٩.

الفصل الثاني

في ملابس الرؤس

اعلم أن ملابسهم القديمة الباقية في عوامهم إلى الآن مشتملة على قميص افرنجي، والغالب أنه من الشيت؛ لأن العوام يحبون الألوان، ثم لباس من البفت أو الجوخ، ثم جبة طويلة محزقة، ولقسسهم جُبب طويلة عريضة الأكمام مثل فرجيات علماء مصر أو بنشات السفطات، ولكن من منذ مدَّن بطرس الكبير الرؤسيا صارت ملابسهم كملابس غيرهم من الأوربيين، فيلبسون الأقمصة البيض، ويضعون على الصدرر فوق جيب القميص قطعة بفت عريضة بطيات مكوية، وتارة يفصلون القميص و يجعلون على صدره طيات، فيكون ذلك ساترًا، ثم الصديريات المفتوحة، ويتأنقون في تفصيلها حسب الكم، ثم السروال الضيق ثم الجبة الأفرنجية القصيرة.

وفي مراسم التكلُّف هذه الجبة مقطوشة الذيل من الطرفين، وطوق الصديري والجبة مرتفع فوق القفا بسبب البرد، وللنظام ملابس مختلفة على حسب اختلاف خدمهم، فالضباط ومن فوقهم يضعون على أكتافهم قرصًا من القصب الأبيض أو الأصفر، ويلبسون السيوف، وأمَّا أرباب القلم فلا يلبسون السيوف، إلا في مراسم التكلف، وكذلك يلبسون فيها بدلة بطوق قصب بحسب رتبتهم، وبعضهم من يلبس البدل المقصبة كلها، وبالجملة فلكل رتبة نوع مخصوص لا يتعداه يلبسه صاحبه في الأعياد، [1/٨٤ظ]والرواح إلى الكبار خصوصًا رؤساء الشَّخص، وعند الذِّهاب إلى مجمع الأعيان حيث الرقص ويسمى ذلك بدلة الوَكبَة، وأمَّا البرانيط فأنواع، المسنمة التي فوقها ريش، أو بلا ريش، وهذه لبس القيصر، والكبار أرباب السيف، وكذا لبس أرباب القلم في التكلفات، وأما لبسهم في غيرها، فالبرنيطة السوداء المدورة العالية بحواف عريضة قليلًا.

وهناك أنواع أخرى خصوصًا للنِّظام بعضها مستطيل وبعضها مربع، وفي آخرها مثل الدبوس فوقه كرة، وحدث منذ بعض سنوات للنظام نوع آخر من البرانيط فوقه شرابه من شعر الخيل، والآن كثيرًا لبسه حتى أني رأيت القيصر بنفسه لبسه في الرواح إلى جنينة الصيف، ويربطون على العنق منديلًا أسود في الغالب، وخصوصًا في الشتاء، وتارة من لون آخر وخصوصًا في الصيف، وأبيض في التكلف، وهذا لا بد منه في هذه البلاد لبرودة الإقليم.

ولما وصلت بتر بورغ كان وقت الصيف، فصرت بلا منديل على العادة، فلما أقبل البرد لم أقدر على الخروج، فربطت المنديل على الرقبة وتارة منديلين إذا اشتد البرد، وقلت في ذلك مضمنًا بيت المتنبي:

وما حيلتي في بترسبورغ وقطرها ... وفي عنقي غل له ألجأ البرد
ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى ... عدوًا له ما من صداقته بُدّ

لكن أرباب السيف يستغنون عنه بالقَبْة المستطيلة، وكذلك في أيام الشتاء لا بد من لبس الفراء، خصوصًا للغرباء لقساوة البرد، وقلت موريًا:

واصلتني يا بدر حتى كان لي ... ببلوغ وصلك في الدجا آمال
لمَ تفتري في موعدي فأجابني ... الافتراء ببترسبورغ حلال

وأما النساء: فالكبراء كلبس الفرنساويات يعني الأقمصة[٨٥/و] والألبسة، ثم الإزارات المربوطة على الوسط، وهي كثيرة، ثم الفسطان، ويجوز لهن كل الألوان والتنوع على حسب الكسم[١]، ويعملون للفساطين وشاحًا يسمى كرسيت، وهي خرقة فيها عيدان مثل الجبيرة لترفيع الخصر، وتارة يتزنرن[٢]، وتارة يفصلن الفساطين واسعات الجيوب، بحيث يرى عنقهن لكن يضعن على ذلك منديلاً أو شيئًا رقيقًا شفافًا من الشاش حسن الصنع مشغولاً بالطارة أو الإبرة.

(١) الكَسْم: للزي من كلام العام، و (الكاسم) أي: البدلة، والأناقة، الأسلوب. انظر : رينهارت دوزي، مصدر سابق، ص ٨٨.
(٢) أي: حزام يُشد على الوسط. انظر: المعجم الوسيط، ص ٤٠٣.

وفي الرقص لهن فساطين بلا أكمام، فذراعهن نصف، وصدرهن مكشوف، إلا أنهن يلبسن الكفوف، وهذا باب واسع الذيل، وبحر كثير السَيل، فالكسم في كل وقت يتغير، ويكتب ذلك في الجرنالات، حتى أن للكسم جرنالًا مستقلًا فيه صورة امرأة لابسة بغاية التأنق، أو رجل، وهذا كله يأتي من باريز، ويتبع ذلك نساء الأوربا، وتارة تلبس كبار النساء الرؤسيات السَرفان، وهو لباسهم القديم، والفلّاحات إلى الآن يلبسنه، وهو معلق بأشرطة لا صدر له، لكن سرفان الكبار مرصع باللؤلؤ أمام، ولهن برنيطة عريضة من فوق مدورة، ومن أسفل أقل عرضًا، كذلك مرصعة باللؤلؤ يلبسن ذلك في التكلفات الكبيرة، مثل الأفراح القيصرية، والولائم الملكية.

وأما نساء العوام فمختلفات الملابس بعضهن بالسرفان، وبعضهن بالفسطان، وبعضهن يلبس فوق الفسطان مثل الصديري، وبعضهن يتعصبن بالمناديل، وهذا باق حتى عند نساء التُجار إلى الآن، لكن الأكثر يقلدن الأعيان، وقد رأيت مرة في دير سموليني بنات الأعيان لابسات السرفان والبرنيطة الرؤسية، وكان ذلك أسبوع الميلاد.

وفي هذه الجمعة على العادة القديمة تجتمع العذارى، ويأخذن طبقًا ويضعن فيه ماء، ثم يغنين [٨٥/ظ] ثم يعطين الخواتم للحاضرين يزعمن أن ذلك يدل على البخت، وتارة يبذرن الشعير أمام البنات، ويضعن فيه خاتمًا، ثم يرسلن ديكًا يلقط الحب، فإن نبش الديك وأخرج الخاتم فمن كان أمامها فإنها تتزوج في ذلك العام إلى غير ذلك من الأوهام القديمة.

وفي هذه الجمعة يمسخون أنفسهم ويغيرون زيهم، فبعضهم يلبس وجه شخص قبيح الصورة، وبعضهم صورة حمار أو عفريت إلى غير ذلك، ثم يدورون في الحارات، ومن حيث أن لبس الفقير مخالف للبسهم بعضهم يظنني أحد الروس الممسوخين؛ لأن في هذه الجمعة يغيرون الملبس أيضًا، ويفعلون ذلك في الرقص أيضًا، ويسمونه المسخرات كما يأتي.

وأما الذقـون: فالأعيان وغالب التُجار يحلقونها، والعوام والقسـس وبعض التُجار بلحاهم وكثيرًا من لحاهم، وأما الشـوارب فتحلق غالبًا إلا للنظام وأرباب السـيوف، وكذلـك العارضات، وما تحت الذقن يجوز فيهـا الإبقاء، والعادة الآن بين الفرنسـاوية إبقـاء الذقون والعامـة والتُجار لا يخضبـون، وكذلك التتار، فكأنهم بلغوا أمنية الشـيخ أبي بكر الشـيرازي[1] من شـعراء اليتيمة، حيث قال يتبرم بشبابه، وكان خنق التسعين، ولم تبيض له شعره[2]:

[الوافر]

إلامَ وفيـــــمَ يظلمنـــــي شـبابي ... ويلبـس لمتـى حلـل الغُـراب؟
وآمـل شَـقـــــرَة بَيْضَـاء تبـدو ... بـدو البـدر مـن خلل السَّـحاب
وأدعـي الشَّـيْـــخ ممتلئًـا شـبابًا ... كـذا ظمـا يُعلـل بالسَّـراب
فيـا شـوقـــي هنـاك إلى مشـيبي ... ويا خجلي هنالـك واكتئابي
ألا يـا خـــاضـب الشـيب المعنـى ... أعني في الشباب على الخضاب
فكافـور المشـيب أجـلّ عنـدي ... وفي فـودي من مسـك الشـباب
[٨٦/و] وأيـن مـن الصباح ظـلام ليلٍ ... وأيـن مـن الرَّباب دجـى ضباب
ألا مَـن يشـتـــري منًـا شـبابًـــا ... بشـيب واسـودادًا باشـهباب

ويميل له قول أبي الطيب المصعبي[3] في ذم الشباب[4]:

لم أقـل للشـباب في كنـف اللّه ... وفي سـتره غـداة اسـتقلا
زائر لم يـــزل مقيمـــا إلـى أن ... سـوّدَ الصحـف بالذنـوب وولى

(١) هو: هبة الله بن الحسين أبو بكر ابن العلّاف الشيرازي، توفي سنة ٣٧٧هـ. الثعالبي: يتيمة الدَّهر، مصدر سـابق، ج٣ ، ص ص ٤٨٥-٤٨٧؛ وياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٦ ، ص ص ٢٧٦٨- ٢٧٦٩.
(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج ٣ ، ص ص٤٨٥- ٤٨٦.
(٣) هو: محمد بن حاتم، أبو الطيب المصعبي، توفي في حدود سنة ٣٣٠هـ؛ الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج ٤، ص ص ٩٠-٩١.
(٤) المصدر السابق، ج٤ ، ص ٩٠.

أين هذا من قول الآخر[1] : [المتقارب]

أليسَ عجيبًا بأنَّ الفتى ... يصاب ببعض [2] الذي في يديه
فمن بين باكٍ له موجع ... وآخر [3] مُعَزٍّ مُعَزٍّ إليه
ويسلبه الشَّيب شرخ الشَّباب ... فليس يعزيه خلق عليه

وأما الفرس فيخضبون ميلاً لقول الخُشْنَامي[4] من شعراء اليتيمة[5] : [الوافر]

أقول لمن يعد الشَّيب نورًا ... ويزعم أنه يكسو وقارا
أحب من الوقار إليَّ شعر ... يحاكي لونه سبجًا[6] وقارا

ولأبي الفرج ابن أبي سعد بن خلف[7]، من شعراء الخريدة، وهو من أحسن ما يروى في معناه:

وأنكرَ جاراتي خضاب ذوائبي ... وهن به زُيِّنَ بيض الأنامل
فواعجبًا منهن أنكرن باطلا ... عليَّ ولم يخلبن إلاَّ بباطل

ويعضده قول الآخر[8] :

لو أن لحية من يشيب صحيفة ... لمعاده ما اختارها بيضاء

---

(١) نسبها الشريف المرتضي في: أمالي المرتضي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ١، الناشر عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٤، ص ٦٠٨ إلى محمد بن حازم الباهلي، توفي في حدود سنة ٢٢٤هـ ؛ ونسبها ابن شاكر الكتبي في: فوات الوفيات، مصدر سابق، ج ٤ ، ص ٨٠ لمحمود الوراق توفي في حدود سنة ٢٣٠هـ.
(٢) في فوات الوفيات: بنقص.
(٣) في المصدر السابق: وبين.
(٤) هو: أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد بن خشنام، أبو مسعود الخشنامي، توفي سنة ٤٢٩هـ. الثعالبي: يتيمة الدهر ، ج٤، ق٢ ، ص ص ١٩٨– ١٩٩.
(٥) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٩٨.
(٦) خرز أسود، دخيل معرب. لسان العرب: مادة سبج.
(٧) هو: أحمد بن خلف الهمداني، أبو الفرج. الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج٤، ق٢ ، ص ص ٢٩٢– ٢٩٦، والأبيات في المصدر السابق، ج٤، ق٢، ص ٢٩٤.
(٨) هو: يعقوب بن صابر بن بركات بن عمار بن علي بن الحسين المنجنيقي، نجم الدين، أبو يوسف. توفي سنة ٦٧٥هـ . ابن الشعار: قلائد الجمان ١٠: ، ص ص ٩٢– ٩٩؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان ٧ ، ص ص ٣٥–٤٦، والبيت في المصدر السابق ٧، ص ٤٠.

وأما شعر الرأس فالرِّجال يقصرون، وفي تعهدها لا يقصرون إذا هم مكشوفوا الرؤوس في المجالس، وأما النساء فيرسلن من شعورهن المقاصيص، ويجمعن غرائر الشعر بمشط في وسط الرأس، ويتعهدون ذلك حتى العجائز:

وقد شمطت ذوائبها وليست ... على أمرٍ سوى فتل العقاصي[1]

ولا يرسل الشُّعور على الظهر إلا الفلَّاحات، وتارة يضعن بعض شيء للتَّحسين كشريط أو دبابيس كبار مُذْهَبة أو نحو ذلك، والمتزوجات يضعن على الرؤوس طاقية رفيعة بغاية الإتقان، وحسن الذوق، وللنساء شمسية قصيرة في غاية البداعة من الربيع والصيف تقيهن حرَّ الشَّمس، وأما الرجال فلا يتخذن إلا الكبيرة للمطر، ومما قلت في بعض العذارى:

ولم أنسَ لمَّا أن تبسَّم ثغرها ... ومنت بتوديع بغير سلام
شقيقة بدر إن يك البدر غرها ... وحلوة ثغر رقَّ فيه نظاميَ
وقد رفعت بالشَّمس فاتخذت لها ... حجابًا وما تنفك دون ملام
طويلة شعر قصَّرته بمشطها ... فها هو إكليل الجمال وساميَ
فؤادي كخديها وحمر شفاهها ... ألست ترى أن الجميع دوامي
مورَّدة الخدين في زمن الشتاء ... فكيف بيوم في الهجيرة حامِ

[٨٦/ظ] وفي المدينة مخازن لتهيئة هذه اللوازم، ففيها من الأقمشة النفيسة كل ما يحتاج إليه، وخياطون وخياطات للتفصيل، وشرح هذا الباب غني عن التفصيل حتى يوجد كثير من المزينين لإصلاح الشعور وقصِّها وتقصيرها وتزيينها على حسب الذوق، وإذا لم يكن للشخص شعر ولا أسنان، وضع له شعر وأسنان عِيرة بغاية الإحكام حتى لا يكاد يتميز من الطبيعي، ولله من قال[2]:

قالت أراك خضَّبت[3] الشَّعر قلت لها ... خضبته عنك يا سمعي ويا بصري
فقهقهت ثم قالت إنَّ ذا عجب ... تكاثر الغش حتى صار في الشَّعر

(١) لسان العرب: مادة عقص، وتعني: أن تلوي الخصلة من الشعر ثم تعقدها ثم ترسلها؛ كما نُسب البيت لعبد القاهر الجرجاني عند أبي الطيب الباخزري في: دُمية القصر، ج١، مصدر سابق، ص ٥٨٧.

(٢) هو: أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل ابن علي بن أبي طالب الرسي، أبو القاسم المصري. توفي سنة ٣٤٥هـ. الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج ١، ص ص٤٩٧- ٤٩٩، والأبيات ١: ، ص ٤٩٨؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ص ص ١٢٩-١٣١؛ والذهبي: تاريخ الإسلام ٧، ص ٨١٧.

(٣) في تاريخ الإسلام: سترت

الفصل الثَّالث

في دين الروُس

قد سبق أن الروس كانوا عبدة أوثان حتى تنصَروا في زمان فلادمير على طريق الروم، لكن المطران ليس الرئيس المتوحد، كما كان البابا في رومة، بل الرئيس الديني القيصر كالسَلطان بين المسلمين، وتحته ثلاثة مطارنة وعدة أساقفة ومشورة الرهبان، وطريقة الروم التي تدين بها الروُس تخالف طريقة اللاطينيين بفرق ضعيف، فرق الفئتين المتحدتي الدِّين، وذلك أن الروم يعتقدون كاللاطينيين سواء أسرار التجسد، وتخليص عيسى العالم من الخطايا في اليوم الآخر، والثَّواب والعقاب بعد الحياة على الخطيئة الأصلية، وعلى العفو اللازم والمعروف، إنما الفرق بينهما في العقيدة من جهة التثليث، فاللاطينيون يقولون: إن روح القدس ينبعث من أب وابن، والروم يقولون: إنه من أب بواسطة ابن، ولأجل الفرق بينهم وبين الكاثوليكية اليونانيين يصلبون ضامين الثلاثة الأصابع الأصلية، يعني ما عدا [٨٧/و] الخنصر والبنصر من اليد اليمنى جاذبيها من الصدر إلى الكتف اليمين، ومنه إلى الكتف الشَّمال.

والتكريز عند الروُس بلسان الصقلب، كما أن الوعظ عند الإسلاميين بلسان العرب، وهو مصحوب بموكب وزينة عظيمة وشموع موقودة، والأواني في الغالب ثمينة مذهبة ومرصَعة بالجواهر والصور والتماثيل من اللوازم عند الروُس في الكنائس، وفي البيوت بحيث إن الكنائس مملوءة بها، وتارة يوجد حتى في الأسواق، وفي كل بيت في أوضة مخصوصة صورة العذراء والمسيح مطلية بالذهب أو الفضة، أو مرصعة بالجواهر على حسب الغني والفقر، وتارة صور أخرى والداخل يتوجه إلى الرُكن الذي فيه الصورة، ويسلم عليها أولاً بخفض الرأس والتصليب مرارًا، ثم على أهل البيت، وكذلك عند الخروج

للوداع، وكذلك عند المرور على الكنيسة أو الصور التي في الأسواق، لكن هذا بين العامة والتُجار، وأما الأعيان والأكابر فلا يفعلون ذلك، ولذلك المعري نظر حيث قال:

ما الناس إلا اثنان إمَّا جاهل ... متديِّنٌ أو عالمٌ لا دينَ له

وعند الصور قنديل دائمًا مولع أو شمعة موقودة ليلًا ونهارًا إلا للفقراء، فليلة الأحد والأعياد، وأيامها وكنائسهم موضوعة، بحيث أن يكون القسيس في المحراب متوجهًا للشَّرق، والنواقيس في العادة في برج عالٍ كالمنارة، أو في محل منفصل عن الكنيسة.

وفي وقت التكريز كل النَّاس تقف والرجال تقلع البرانيط، وكثيرًا ما يصلبون، بل ويقفون ساجدين على الأرض، ويكثر الرواح إلى الكنائس في الأحد والأعياد، ويوم اسم الشخص أو ولادته، وفي أيام الصيام خصوصًا الكبير الذي قبل الفصح، وفيه يستغفرون من الذنوب بأن يقر المذنب بذنبه للقسيس فيأمره بالسجود في بيته بقدر الذنب صغرًا وكبرًا، ثم يسقيه خمرًا كأنه دم المسيح، وخبزًا، وفي أيام الصوم [٨٧/ظ] خصوصا الكبير والجمعة الأولى والسابعة يمتنعون حتى من السمك والبيض والسمن، ومنهم من يدقق حتى في جميع الصيام، فلا يأكل حتى السمك والسمن بل الزيت الحار و نحوه، وبعضهم لا يلتزم لكن أكثر العامة والفلَّاحين يراعونه فلا يأكلون لحمًا البتة، وما ألطف قول ابن حجاج:

جفاني اللحم وهو شقيق روحي ... فمن يعدى على ذاك الشقيق
كأن اللحم في صوم النصارى ... توهمني بزعم الجاثليق

الفَصل الرَّابع

في الزواج

اعلـم أن الـروس من زمـان بطرس الكـبـير إلى الآن كسـائر الأوروبيين لا يحجبون نساءهم عن حضور المجالس مكشوفات الوجوه، فحينئذ يسهل على من يريد التزوج اختيار من شـاء، وتارة بواسـطة الخاطبـة خصوصًا عند العوام، ومن حيث أنه لا طلاق لا يقنع الإنسان بمجرد النظر، بل لا بد من معرفة الطبع، فيصطحبـان بغاية الأدب وينظران بعضًـا في المجالس، وهذا يختلف باختلاف النَّـاس، فمنهـم مَنْ يقنع بأن المرأة تحبه بزمان قصـير، ومنهم من لا يقنع، وعلى كـل حال، فإذا حصلت المحبة من الطرفين التي يسمونها العشق، أو كان هناك غرض آخر سـألها التزوج بها، فإذا قبلت سـأل بعد ذلك أهلها ثم يشرطون الشرط في البيـت، وحينئـذ يفعل لها خـاتم ذهب، ولنفسـه كذلك، وتسـمى حينئذ خطيبتـه، ومن ذلك الوقت يجيء كل يـوم عندها ويروح حيث تروح، ثم يعين وقت للعرس، وحينئذ يذهبون للكنيسـة فيسـألها القسـيس أولًا: هل رضيت بهـذا؟ فتقول: نعـم، وفي هذا الوقت يتوجـان، وإن لم يكـن أب ولا أم اختير أب [٨٨و] وأم يسميان أبوي الزواج، و يحضران في الكنيسة مع العروسين.

وكذلك يختار شاب يسمى مهياص الفرح، وهو الذي يمسك تاج العروسة علـى رأسـها في وقت غنـاء القسـيس، ويبدل الخاتمـين ثلاث مـرات بأن يضع خاتمهـا في أصبعه وخاتمـه في أصبعها، ثم يـدور بهم في الكنيسـة مرارًا، ثم بعد فراغ الغناء يهنون العروسين، ثم يرجعون البيت، ويشربون خمر الشامباني مع الحلاوة، وربما رقصوا، والنسـاء المعزومات للعرس يحضرن في غاية التبرج، وكذلك العروسـة وفسـطانها مخيط فيـه أزهار صناعية، وعنـد بعض الناس تتفـاءل البنـات غـير المتزوجات بأخذ شـيء مـن هذا الزهـر لنفـاق بختهن، وبين

حاضرات الفرح ربما تميز بعض الحسان، وجذبت نحوها الأنظار والخبان حتى يظن من لم يعرف الحال أنها العروسة:

وكم في العرس أبهى من عروسٍ ولكن للعروس الدهرُ ساعَد

والرواح والرجوع في عربات الملك أو الكراء.

ثم في اليوم الثاني يذهب العريسان ـ ويسميان بالروُسي «الشابين» ولو كان كبيرين ـ إلى المعارف والأحباب لزيارتهم وشكرهم، وربما دعوهم إلى ليلة مخصوصة للرقص عندهم، والغالب أن الزوجة أصغر بنحو عشرة أو خمسة عشر سنة، وتارة تكون الزوجة أكبر، وتارة أصغر جدًا.

وإذا كان أحد الزوجين غير روسي ضوعف العقد، فيحضر القسيس غير الروُسي، ويثبت العقد بعد القسيس الروُسي، وهكذا مع غير الروُسي، حيث اختلفت المذاهب، وقد حضرت مرة زواج نيمساوي كاثوليكي مع نيمساوية لوتيريانية، فعقد العقد أولًا في الكنيسة الكاثوليكية قسيس كاثوليكي، ثم بعد الرجوع في البيت قسيس لوتيرياني.

ولا يجوز لأحد في مدة الحياة التزوج أكثر من ثلاث مرات، فالقبَارة مسكينة، نعم يجوز التزوج برابع إن كان [٨٨/ظ] يهوديًا وتنصر، وفي مدة الصيام لا يجوز التزويج.

وأما المهر فتعطيه الزوجة، وكثير من الأزواج صاروا أغنياء بسبب زوجاتهم، فالحسن ليس جالبًا للعشق أقوى من المال، فالقباح الغنيات يعشقن ويتزوجن قبل الحسان الفقيرات[1]:

[الكامل]

كتنفس الحسناء في المرآة إذ برعت محاسنها بغير زواج

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ج٢، مصدر سابق، ص ٢٢٢.

فإن اجتمع الحسن والمال قوي الجاذب غير أنه خطر، ولله در إمامنا الشَّافعي، حيث قال: «ما سلمت ذات جمال قط، فاظفر بذات الدين، تربت يداك».

وإذا تزوجت المرأة سميت باسم عائلة الزوج لا باسم عائلتها، ومن له بنات يظهرهن في المجالس، ويعمل لأجلهن ليالي رقص، عسى أن يعشقن ويتزوجن، وربما نشأ من هذه الواسطة غرور كثير، تارة يظهر أحدهما العشق بلا حقيقة ثم يترك، وكم من خادع وخادعة وداهية وباقعة، وتارة يكون الرجل كثير الملاطفة، فيظن أنه عاشق، ويظن أنه يريد التزوج.

ثم يتبين الحال بعد وقوع المرأة في العشق في أوحال، وكل هذا لغير المتزوج، إذ المتزوج معلوم حاله، فملاطفته للنساء من باب الأدب العقيم، وتارة يكون له غرض وخيم، وأما المتزوجة فيلاطفها الرجال أدبًا، وربما جذبت عقولهم فيعشقونها، وربما عشقتهم خصوصًا إذا رغبت عن الزوج، وكم من نساء متزوجات لفظًا مطلقات معنى يعشن مفترقات من الأزواج مع العشاق، وكذلك الأزواج، وكثير من يفعل ذلك سرًا، وربما تبعت الزوجة العشيق إلى بلاده، وتركت مُنشدة بلسان الحال:

قاطعته وخلعت من يده يدي ... وتلوت لي وله وأن يتفرقا

وأما المعيشة بلا زواج فكثيرة، وربما حصل بعدها الزواج، وعند النيمساوية يسهل الفراق، فلا يندر وجود امرأة تفترق من زوجها ثم تتزوج [٨٩/و] آخر، وأما زواج التتار القاطنين في الروسيا فكالمسلمين إلا أنهم يدعون الحاضرين للوليمة، ويعقدون العقد قبل الطعام، فيقرأ المُلا خطبة النكاح، ثم يعقد العقد مع الزوج ووكيل الزوجة الثابت وكالته بشاهدين والزوج، ويعين المهر الذي يعطيه الزوج، ثم بعد ذلك يأكلون، وبعد الأكل يرسل من طرف العروسة بعض هدايا لبعض الحاضرين الذين يرسلون لها النقطة في مقابلة ذلك، وندر الطلاق بينهم، وإن كان جائزًا، اللهم إلا لسبب يقتضيه.

الفصل الخامس

في التعميد ويوم الولادة والاسم والدفن

إذا وُلد لشخص مولود أحضر القسيس، وأعطى للمولود اسمًا كما يريد أهله، وأخذ المولود وبارك عليه، وبعد ذلك بمدة يعمّده في البيت أو الكنيسة، ثم يحضر طشت فيه ماء فيقدسه، ثم يضع المولود في الماء، ويأخذه منه الشبينه ـ يعني أم التعميد ـ وتلفه في قميص جديد وطاقية، وتعطى للقسيس منديلًا يمسح به يده، ويأخذه، ويحضر أيضًا أبو التعميد، وهو يعطي الأجرة للقسيس، ويشتري للمولود صليبًا يلبسه، وكل الناس في أعناقهم الصلبان فى ذلك الوقت، خصوصًا النساء، لكن الكبار لا يظهرونه، ثم بعد ذلك تدور الشبينة بالمولود ثلاث مرات، وفي يدها شمعة، وكذلك أبو التعميد، ويغني أثناء ذلك القسيس ويدهنه بالزيت المقدس.

ثم يحيون الليلة بالرقص والشَّراب ويحدث بين أبي التعميد وأمه لُحمة كلحمة النسب بحيث يمتنع التزوج، وكذلك بينهما وبين الأب والأم والغليونة، ولهذا تدعو معمديها بأبويها، ويسمون المولود بأسماء القديسين، مثل بطرس، مريم، ويعمل لهذا الاسم يوم يحي كل عام، وهو اسم [٨٩/ظ] مولد ذلك القديس مثلًا يوم مولد مارنقوله سادس كانون الأول، فإذا سُمي المولود نقوله على اسمه كان عيد اسمه كذلك، ويوم الولادة يشهر أيضا كل سنة، ويجيء الأحباب والمعارف والأقارب للتهنئة، وربما عملوا ليلة ورقصوا، أو وليمة، وشربوا الخمر على صحة صاحب العيد، وهذا يختلف باختلاف الناس.

وإذا مات إنسان أتى القسيس وقرأ عليه، ويأتي أيضًا قبل خروج الرُوح ليلقنه، ثم يغسّل ويكفّن، وكفنه ثياب الحياة بعينها، فيلسبونه مثل

ما هو حي حتى الجزمة، ويوضع ووجهه مكشوف في تابوت حسن، ويوقدون حوله ثلاث شمعات اسكندراني، وعنده في طول هذه المدة قسيس يقرأ عليه، وكل يوم يجيء القسيس الكبير ويصلي عليه، ولا يدفن قبل ثلاثة أيام لاحتمال الحياة، ففي اليوم الثَّالث أو الرَّابع المُعدّ للدفن تُهيأ الكنيسة، وتغطى دككها التي تجلس الناس عليها بالجوخ الأسود، وكذلك تهيئ عربية معدّة لذلك بالجوخ الأسود والخيل التي تجرها تغطى بالجوج الأسود، ويصحبون جنائزهم بالنَّار، فيمسك القسيس شعله من نار، و يختلف ذلك باختلاف الموتى، فالكبراء يزاد لهم، وتغطى العربة بقبة جميلة، ثم يحمل التابوت من البيت إلى الكنيسة مصحوبا بالمشيعين، وتارة يحمل التابوت يوم الموت، ويوضع في كهف الكنيسة إلى يوم الدفن، وتُطبع أوراق الدعوة في أوراق مجدول طرفها بالأسود، فيحضر الناس ويغني القسيس والشموع [٩٠/و] موقودة.

ثم بعد فراغ الغناء يحمل الرجال التابوت من الكنيسة إلى العربة المنتظرة لحمله على الباب، ويضعونه فيها، وبعض المشيعين يمشي قليلًا، ثم يركب عربته، وبعضهم يركب وبعضهم يمشي إلى الجبَّانة، وهناك يُدفن، فيأتي قسيس ويرش عليه عند إلقائه بتابوته التَّراب، ويرش عليه الحاضرون، ثم يخلونه، والعادة أن تعمل وليمة عند القبر للمشيعين فيأكلون ويشربون الخمر على روحه، ويطبخون الرُز بالزِبيب، وكل من مرت عليه الجنازة يقلع البرنيطة، وكذلك المشيعون تارة، وربما وضعوا في الطريق إلى الكنيسة شيئًا أخضر من فروع الشجر ومقبرتهم مشتملة على قبور محكمة البناء بالأحجار، وفي الغالب أنها طويلة كالعمد، وبعضها مدور، وبعضها مستطيل، وبعضها مسنم، وبعضها مربع، وفوقها الصليب بخلاف القرى، ولا يظهر من قبورها إلا الصليب فوقها، ويُعمل للميت أثر، وهو حجر من الرخام يكتب عليه اسمه وتاريخ ولادته وموته، وربما يتأنقون في ذلك، ويكتبون أشعارًا.

وللتَّتار قرافه مخصوصة منعزلة عن مقابر الرؤس، وإذا مات أحد لبس أقاربه عليه الحداد مدة معلومة عندهم، فالنساء تلبسن الفسطانات السُود والبرانيط السُود، ثم الخمار الأسود بحاشية بيضاء، وأما الرجال فمن حيث إن لبسهن أسود

يلفون على البرانيط حريرًا أسود، وفي مدة الحداد لا يرقصون إلا أنهم يحضرون مجالس الرقص والتياتر، وتارة تلبس بعض النساء في مدة الحداد ثياب الزينة إذا ذهبن إلى أعياد بعض الأقارب، ثم يقلعن ذلك، وبالجملة فالتكلفات في هذه البلاد كثيرة، والرسوم غزيرة، ولكل شيء قانون عنده يقفون ويُصفَون.

[٩٠/ظ] الفصل السَّادس

في أعياد الرؤس

أولها: عيد أول السَّنة، يبتدئ أول كانون الثاني، فيه يذهبون لزيارة الرؤساء والكبراء والمعارف، ويكتب الشَّخص اسمه إذا ذهب إلى رؤسائه، ولم يرهم ويعطي ورقة الزيارة المطبوعة باسمه لغيرهم، وكانت الرؤس في الزمن القديم تعد تاريخها من خلق الدُّنيا، والسَّنة الجديدة من أول آذار في وقت الاعتدال الربيعي مثل الفُرس المبتدئين سنتهم من النوروز، واستمر ذلك إلى القرن الخامس عشر في إمارة وسيلي دميتريفيج أمير دونسكوي، فقواه المطران كيبريان على تغيير أول السَّنة اتباعًا للأروام، ومن ذلك الوقت ابتدأت السَّنة الجديدة عند الرؤس يوم مارسيميون مقضي الصيف الذي يشهر أول سنتابر[1] في الخريف، لكن لم يزالوا على عدد القرون من أول خلق الدنيا، فكان أسلافهم في ذلك اليوم في كل سنة يشهرون فراغ الصيف ودخول أول السنة الجديدة.

ويبتدئ التعبيد من طلوع الشمس في موسقو بعد صلاة الصُّبح في كنيسة التصليب الكبيرة، فيخرج المطران إلى الميدان مصحوبًا بالقسس والصور والصُّلبان، وحينئذ تضرب جميع النواقيس، ويتم رسم الماء المقدس والصَّلاة، ويقول: بارك اللهم في العام الجديد، بإفاضة الإحسان والصلح، ويصلي القيصر وسكان موسقو بالخشوع، ويسجدون عند غنائه «خلص اللهم عبادك وبارك في خليقتك»، ويُرش المطران القيصر والنَّاس بالماء المقدس.

(١) كذا كتبها المصنَّف.

ويهنئ القيصر رعيته الأمناء بقدوم السَنة الجديدة، ويسمع بغاية البشاشة تهنئة[٩١/أ] رعيته المتمنين له بقلب واحد، الصحة ونعمة الله، ثم تقام الصلاة والنَّاس يتماشون في داخل الكنسية، وبعد الصلاة كلهم يسرعون إلى أقاربهم الكبار، ويهنئون بعضهم بعضًا بمقدم السَنة الجديدة والسَعادة القشيبة، وبعد الغداء يذهبون إلى البيوت، ويتمنى بعضهم لبعض بالأمنيات الكبيرة أن يعيش إلى أمثال هذه السَنة الجديدة على عادة الآباء والأجداد الموصى بها، وعلى هذا استمر الأمر إلى سنة ١٧٠٠ نحو ثلاثة قرون، فظهر في الرُوسيا قيصر عجيب بطرس الأول الذي عند اطلاعه على الأوربا، واستحسانه معيشتها الجديدة بالراحة، وتمدنها السَاحر للنفس والعقل غير المعلوم للرُوس بعد عزم على تمدين رعيته وإزاحة كل ما يبعدهم عن الأوروبيين بالكلية، أو تخفيفه، وما يميزهم عنهم في الأفكار والتشبث بالأوهام القديمة المتوارثة الموجبة لاحتقار التمدن الأوربي وكراهته.

وقطع هذه العلائق أبطل كثيرًا من العوائد التي من جملتها حساب السنين الذي غيره بطرس، وصدر عنه أمر ١٩ كانون الأول سنة ١٦٩٩، إن من هذا الوقت يكون رأس السنة من كانون الثاني سنة ١٧٠٠ في الأوامر والفرمانات، وكل الأمور والمعاملات موافقة لنصارى الأوربا، وأن يكون من الميلاد، ولا من خلق العالم، وأشهر ذلك في الكنيسة وبإطلاق المدافع كثيرًا، والرقص والشنك ليلًا، وعلى الحساب من خلق العالم تكون هذه السنة سنة ١٨٥٠ من الميلاد، وسنة ١٢٦٦ من الهجرة سنة ٧٣٥٨ على قولهم، وبقي أيضًا اختلاف بين الرُوس والأوربيين ١٣ يومًا تأخروا بها عن غيرهم، ويمكن أن يوافقهم في ذلك إذا صدر أمر القيصر.

[٩١/ظ] الثاني: عيد الرفاع، وفيه ينصبون في الميدان الذي أمام قصر الشتاء أنواع الملاهي والمراجيح، ويبنون بيوتًا يلعب فيها الملاعيب، وفي بعضها يرون الحيوانات والوحوش المجلوبة كالسَبع والنَّمر والذئب، وفي بعضها يجرون على الخيل إلى غير ذلك، ويبنون هناك محلًا عاليًا كالجبل لإزلاق العوام، وهذا العيد

قبل صومهم الكبير بأسبوع لا يأكلون فيه اللحم، بل أنواع الفطير والسمك، ويأكل الناس بعضهم عند بعض رقاقًا يسمونه «سلطانلني» طول هذا الأسبوع، وفيه يلعب التياتر في الظهر والليل كل يوم مرتين توديعًا، حيث إنه ليس في الصوم تياتر إلا للأطفال.

الثَّالث: عيد الفصح، وهو فسخ الصيام، و يحيون ليلته، ولا ينامون فيها، بل ينتظرون نصف الليل، ويذهبون للكنيسة نصف الليل للصلاة، وهذه الصلاة طويلة نحو ساعيتن، وكم فيها من زحام رجال ونساء، وتكثر اللصوص في هذه الصلاة و نحوها، فيسرقون ما وجدوا من ساعات أو نقد، ثم بعد فراغ الصلاة يأكلون ويأخذون فطيرًا معهم إلى الكنيسة يبارك عليه القسيس، ثم يأكلونه بلبن منعقد.

وفي هذا اليوم تكثر الزيارات للتعييد كما في أول السَنة، فهما اليومان اللذان يلزم أن أهل الخدم تذهب فيها إلى رؤسائهم، والأحباب إلى أحبابهم، والمعارف إلى معارفهم، وهما العيدان العموميان، ويكثر في الفصح إهداء البيض المنقوش و نحوه، وهذه الأشياء تباع في السوق الكبير في الجمعة السادسة جمعة الشعانين، فيفرشون بهذه الأشياء و نحوها كالأزهار المصنوعة واللعب والصور للأطفال وصور خيل وعربات وطيور وعصافير وبعض البيض منقوش [٩٢/و] مكتوب عليه عقيدتهم «عيسى نشر»، وفي هذا العيد يتباوسون ثلاث مرات:

يقول الأول: قام المسَيح، ويقول الثَّاني: حقًا وصحيح؛ لأنهم يزعمون أنه قتل في السبت، ونشر في الأحد، ولذلك يسمون الأحد «النشر» (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) [النساء: جزء من الآية ١٥٧] (وما قتلوه يقينا بل رفعه الله) [النساء: جزء من الآية ١٥٧، وجزء من الآية ١٥٨].

وعادة التقبيل باقية إلى الآن حتى أن القيصر يُعيد التقبيل، إلا أن الرجال لا تقبل النساء إلا المعارف القريبة والقسيس والعوام و نحوهم، وفي طول هذا

الأسبوع تكون بيوت اللعب والمراجيح كما في عيد الرفاع، إلا أنه لا إزلاق بسبب عدم الثلج في ذلك الوقت غالبًا.

الرَابع: الميلاد، وهو قبل أول سنتهم بأسبوع، وهذا عيد كبير عندهم إلا أنه لا يتزاور إلا المعارف والأقارب، فليس كأول السَنة والفصح، وفي ليلته يعملون شجرة صغيرة، وهي غصن شجرة يعملون لها قاعدة، ثم يعلقون فيها من الحلاوات والفواكه والشموع لأجل الأطفال، وهذه العادة سرت للروُس من النيمسا.

وبقيت أعياد أُخر في بعضها تبطل المدراس والمحاكم، ولنذكر أيام التعطيل على الترتيب:

١ـ أول كانون الثاني: أول السَنة.

٢ـ سادسة: عيد الغطاس.

٣ـ ثاني شباط: عيد دخول سيدنا عيسى إلى الهيكل وتطهير العذارء.

٤ـ الجمعة والسبت من عيد الرفاع.

٥ـ الخامس والعشرون من آذار: عيد بشارة مريم بحمل عيسى عليه السلام.

٦ـ من الأربعاء إلى آخر الجمعة الأخيرة من الصَيام الكبير.

٧ـ أسبوع الفصح.

٨ـ الحادي والعشرون من نيسان: عيد القيصرة الحالية اسكندرة فيدروڤنا. [٩٢/ظ]

٩ـ تاسع آيار: يوم نقوله، صاحب الخوارق.

١٠ـ عيد الصعود.

١١ـ عيد روح القدس يومان: الأحد والاثنين، وفي الاثنين تفسح كبير في جنينة الصيف، يسمى عندهم إظهار العرائس تتبرج فيه العذارى و يخرجن مع الأقارب عسى أن يُخطبن، وهذه عادة قديمة بقيت منها آثار عند بعض التُجار والعوام.

١٢ـ الخامس والعشرون من حزيران: عيد ولادة القيصر الحالي نقوله الأول.

١٣ـ التاسع والعشرون: عيد الحواريين بطرس وبولص.

١٤ـ أول تموز:ولادة القيصرة.

١٥ـ سادس آب: عيد التجلي.

١٦ـ الخامس عشر: وفاة مارت مريم.

١٧ـ الثاني والعشرون: تتويج القيصر والقيصرة.

١٨ـ الثلاثون: يوم اسم ولي العهد اسكندر.

١٩ ـثامن أيلول: ولادة العذارء.

٢٠ـ الرّابع عشر: عيد الصليب.

٢١ـ السّادس عشر: يوم الحواري المعمد يوحنا.

٢٢ـ أول تشرين الأول: ستر العذراء وشفاعتها.

٢٣ـ الثاني والعشرون: يوم صورة العذراء القزانية، صاحبة الخوارق.

٢٤ـ العشرون من تشرين الثاني: جلوس القيصر على التخت و يحسب من التاسع عشر.

٢٥ـ الحادي والعشرون: إظهار العذراء في المعبد.

٢٦ـ سادس كانون الأول: يوم اسم القيصر ومار نقوله.

٢٧ـ الثالث والعشرون: يبتدئ التعطيل في المدارس إلى آخر الشهر.

[٩٣/و]٢٨ـ الرابع والعشرون والخامس والعشرون والسادس والعشرون والسابع والعشرون عيد الميلاد، وزيادة على هذه الأيام للمدارس أيضًا، تعطيل في وقت الصيف، فبعضها يمكث شهرًا ونصف، وبعضها ثلاثة أشهر.

الفصل السَّابع

في الحظ العمومي

١ـ التياتـر: ابتدأ في بتر بورغ بهمة شـاهزادة نتاليا أخـت بطرس الكبير، وبنى أول تياتر من الخشـب، وكان اللاعبون عشـرة والموسـيقيون ستة عشـر كلهم من الـرُوس، وأول دور لعب في ذلـك التياتر: تراغيديا، يعني: رثاء.

وكان التياتـر إذ ذاك علـى الخزنـة، والنـاس يتفرجون مجانًـا، ولما ماتت نتاليـا، بطل التياتر إلى تملك القيصرة حنا، ثم دعيت اللاعبون الإيطاليانيون ثـم الفرنسـاويون، وبتقـدم الأدب الرُوسـي ظهر التياتـر الرُوسـي، فصنف أولًا سوماروكوف تراغيديا روسية على كيفية التياتر الفرنساوي وسحر أقرانه، والقيصرة إيلزبيث اعتنت جدًا بأمر التياتر، وقلما تغيب عن الحضور إذا لعب.

وفي سنة ١٧٥٥ لعبت أول أوبرة روسية «واريا» الذي صنف لها المويسيقى أنعم عليـه بكرك ومئة نصف أمبريـال، وفي أول مملكة كترين الثانية، أخذت التياتر قوة جديدة، فأنعمت حيث جلوسـها علـى التخت بتكثير الجماكي، وتحسـين الملابس، وأرسـل ديميريفسـكي إلى البـلاد الغربيـة؛ ليتقوى في صناعة الغنائم، ثم أرسـل إلى باريز ليدعو بعض اللاعبين الفرنساوية، وبنيت مدرسـة لتعلم التياتـر، وبنى تياتر كبـير من الحجر سـنة ١٧٨٤، وكل الناس تقـدر أن تروح بثمن مقدر، وزاد ذوق الناس للتياتر ولا غروى، فالناس على دين [٩٣/ظ] ملوكهم.

كاترين كانـت ماهرة جدًا في هذا الفن كغيره، حتى إنها صنفت أدوارًا اسـتخرجتها من التَّاريخ الرُوسـي والحكايات الرُوسية، وبلغ عدد اللاعبين في

آخر مملكتها إلى ٢١، واللاعبات إلى ٢٢، ومع أن التياتر الفرنساوي ابتدأ في زمان اليزابيت[1]، لكن كاترين ما وفرت شيئًا لتحسينه ورفع درجته، وزيادة على التياتر الميري كانت تياترات للكبراء، منها تياتر الأمير يوسويوف كل جمعة مرتين من خمسة لاعبين وخمس لاعبات، وهو أوبرة إيطاليانية، والمال من الكبراء محبي التياتر ثم رتبت جمعية النيمساوية تياترين نيمساويين.

وفي سنة ١٧٦٨، رتب التياتر الإنكليزي، وبقي سبع سنين، ثم انقطع وما تجدد إلى الآن، وفي أيام القيصر اسكندر الأول زاد حسن التياتر، وكثرت جامكية اللاعبين واللاعبات.

وفي سنة ١٨١٧ خلص اللاعبين من الفردة، وفي زمن القيصر الحالي نقوله الأول بلغ التياتر الدرجة العليا، إذ بُني في زمنه بالحجر التياتر الإسكندري للألعاب الرؤسية، والتياتر الحجري في جزيرة الحجر، وتياتر ميخائيل للألعاب الفرنساوية والنيمساوية، والتياتر يلعب طول السَنة، إلا في أيام الصوم الكبير، وصوم وفاة مريم، وبعض أيام أُخر، لكن في الجمعة الثانية من الصيام الكبير، يعمل اللاعبون نوبات، ويظهرون مع ذلك صورًا حقيقية، فيحصل بذلك للناس السُرور والتسلي، ويبتدئ في المساء، وكذلك الرَقص والنوبات إلا أنه تارة تعمل نوبات في النهار، وذلك لأن النَاس مشغولون طول النهار، فينبغي لهم التسلي في الليل؛ لأن السآمة فيه أقوى، ولله دُر أبي هلال العسكري، حيث قال:

فاجعل الجِدَّ بالنهار شعارًا	والْهُ بالليل ما بدا لكَ وألعب
كم تسربلت من رداء ظلام	ضحك اللهو منه إذ هو قطبْ
ورأيت الهموم بالليل أدهى	وكذاك السرور بالليل أعذَب

(١) للمزيد عن فترة حكم القيصرة إليزابيث انظر:

Moss, Walter G., Op. Cit., p. 256 – 257

٢ـ النوبة: ما كان ميل الروس إلى صناعة الموسيقى وذوقهم مثلما كان في النيمسا وغيرها من الأوربا، لكن بعد ذلك انبثت الشهوة، وزاد الشوق في القلب الروسي إلى هذا التمتع الروحاني، وفي وقت كاترين الثانية ابتدأت في بتربورغ جمعيات الموسيقى، وأحدث في سنة ١٧٧٢ أولها من ٣٠٠ عضو، وكل أسبوع [٩٤/و] تعمل ليلتين، تأتي الناس فيها بكثرة للسماع، لكن هذه الجمعية ما طالت مدتها، ثم أحدثت أخرى تعمل كل سبت نوبة، وكل أسبوع رقصًا أو مسخرات، وأعضاؤها ٥٠٠ كل يدفع ١٥ رُبلاً، والتخت يجلس عليه خمسون من أعظم الموسيقيين، وأول المغنين والمغنيات، وكل مشاهير هذه الصنعة في ذلك الزمان يجيئون في بتربورغ ويعملون النوبات، ويأخذون عليها مبالغ جسيمة من ١٠٠ إلى ٢٠٠.

ثم بلغت هذه الجمعية حدها، وكل شيء بلغ الحد انتهى، فبيعت الآلآت والأثاث في محضر عظيم من الناس، ثم أحدثت أخرى، وبموت أعضائها ماتت، ثم في سنة ١٨٠٢، ابتدأت جمعية فيل أرمونيا يعني «محب الموسيقى» بقصد إعانة فقراء الموسيقيين، ودامت إلى هذه الأيام، وقبل نيف وعشرين سنة كان رأس مالها ٦٠٠٠٠ رُبل، منها يعطي راتب لاثنين وعشرين من أرامل الموسيقيين كل سنة ٣٠٠ للواحدة، ومن ذلك الزمان زادت صرفيتها، واتسعت نعمتها، مع أنها لا تعمل النوبات العمومية إلا نادرًا مرتين في السَنة.

وقبل نحو ستة عشر سنة أُحدثت جمعيات أخرى للموسيقى، وفي كل سنة خصوصًا في أيام الصيام تعطى نوبات كثيرة مشتملة على الغناء على القانون أو اللعب بالكمنجة أو بالناي ،خصوصًا للمشاهير مثل روبيني، فإن نوبته ساوت ٤٠٠٠٠ رُبل مع أنه ما غنى إلا أربعين دقيقة، وتارة تعمل نوبات باسم السقط أو المرضى، فيُؤخذ المبلغ ويُدفع لهم، وتارة تعمل نوبات مخصوصة في البيوت لأجل المعارف، فحينئذ يسمعون مجانًا، ومن حيث أن تربية النساء مستوجبة لتعليم الموسيقى والغناء، فلا يندر سماعهن في بيوتهن، وقد اتفق أني سمعت [٩٤/ظ] فتاة سوداء العيون والشُعور تلعب على القانون، فأطربني

ضربها، فقلت:

مصـــريـة بعيونها وشـعورها ... فبها ترى مصرًا بذيَّاك الحمى
للّه در بنانهـا قـد أحكـم الـــ ... قانون حتى كاد أن يتكلما

وبالجملـة، فقـد يعجبنا تـارة لعبهم وغناؤهـم إذا كان حسـنًا كغناء روبيني، وبعض الإيطاليانيين المشـهورين بحسـن الضرب والغناء، وتارة يعجب الضرب دون الغناء، كما قال الشاعر:

غنـاءٌ تسـتحق عليـه ضربًـا ... وضربًـا تسـتحق بـه غناهـا

وتارة لا هذا ولا هذا، كقول أبي الفتح الحلبي[1]، وهو أملح ما قيل في هجاء عواد:

ومُغـنٍّ عـن غـيره غـير مُغْـنٍ ... جـاء في لحنـه القبيـح بلحنِ
كادفي كفه القضيب من الغيـ ... ـظ ينادي يا أثقل الناس دعني

وقد كتب لي الخواجة فريسنل، قنصل جدة حالًا ما نصه:

«ومن خصوص المويسيقى، لا بد من واحد جني أو مَلَك من الملائكة يقضي ما بينكم وبيننا؛ لأننا لا نتلذذ بأغانيكم ولا تتلذذون بألحاننا، وأما مِن جهة الشـعر والأدب، فجميعنـا علـى ذوق واحد إن شـاء اللّه إلا القليـل، وإذا أقمتم بأرضنا مدة كم سـنة كان الاتفاق بينكم وبيننا من غير استثناء قدرة اللّه آمين».

٣ـ الرقص: ليس إلا حركـة خالية عن الفحش بالكلية، فهو في الحقيقة لعب لتسـلي الحاضريـن، فلذا يعتبره أهالـي بتربورغ من أعظم المسـليات بعد

(١) هو: أحمد بن عبيد الله بن فضال، أبو الحلبي، المعروف بالماهر الحلبي. توفي سـنة ٤٥٢هـ. الثعالبي: يتيمة الدهر ، مصدر سـابق، ج٤، ق٢ ، ص ٢١، وفيه الأبيات؛ وابن عساكر: تاريخ مدينة دمشـق، تحقيق: عمر بـن غرامة العمري ، ج ٧١، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشـر والتوزيع، ١٩٩٥، ص ص ٢٥٧–٢٥٨؛ والذهبي: تاريخ الإسـلام، مصدر سـابق، ج ١٠ ، ص ٢٦.

التياتـر والنوبـة، ويبتدئ من الخريف إلى الصوم الكبـير، ويكون في القصر عنـد القيصـر وعنـد الـوزراء والأمـراء وأربـاب المراتب مـن ذوي السـيف والقلم والأغنيـاء وشـبندرات التُجار وغيرهم، كل على حسـب حالـه، وتارة يكون عموميًا في [٩٥/١و] مجلس الأعيان ونحوه.

وأول ابتداء الرقص في الرُوسـيا كان في زمان بطرس الكبير، وبه حصل للروس اكتسـاب قوانين الأوربا والملاطفة وحسـن الخطاب الناشـىء ذلك عن اجتماع النساء والرجال، فيتكلف الرجل في مخاطبة النساء ما لا يتكلفه في خطـاب الرجـال، حتى صار التكلف كلفًا، ولو لم يكـن من ثـمرات اجتماع النسـاء بالرجـال إلا قصـر النظـر عليهن وعـدم التعلق بالغلمـان لكفى ذلك كيف وفيه فوائد أخرى في العشرة وحسن الأدب وغير ذلك، وقد قلت:

ولـو أن النسـاء تبـدو بمصـر ... مـا سمعنـا تغـزلًا في غـلام
كل هيفـاء كالغـزال بوجهٍ ... سـاطع نـوره بغـير لثـام
قلبـت برقعًـا بعقـرب صـدغٍ ... أفمِـنْ لدغـة الخـدود دوامي
ولـكل امـرئ جليـس أنيـسٌ ... فاتقـوا اللّه يـا أولـي الأحلام
أي غُـدرٍ في عِشـق رب عـذار ... في هـوى الغانيـات أي مـلام

وفي زمـن كاتريـن الثّانية كانت جمعيـة الرّقص لازمة لحـظ الكبار، وغيتهـم زادت علـى الحد، والتزيـن والتفاخر والإسـراف في الأعيـاد حتى عند التُجـار الرؤس بلغ أقصى درجة، فتارة تغطي السُـفَر لآلاف مـن الناس وينفقون مبالـغ جسـيمة ٥٠٠٠٠ رُبل أو أكثر، وبقي من هذا آثـار إلى الآن، لكن الأكثر البسـاطة وعـدم التكلف في لبس السـتات على الـذوق الأوروبـي، وإكرام الضيـوف وأدب الأولاد، ولا يلـزم الضيـف أو زائـر الجمعيـة أن يرقص أو يلعب الـورق، بل على كيفه، فيجوز له أن يجلـس ويلاحظ من يلعب أو يرقص، إلا أنه قد يستثقل من يترك اللعب أو الرقص بلا سبب في البيوت لا في الجمعيات؛ لأنـه لا تكلـف فيها، قال بعضهم: لو حسـب عدد الآتـين في جمعيات الرقص، وفي الليالـي المعمولة، وطرح منه عدد مـن يلعب الورق أو يتفرج كان الراقص واحدًا من مئة وستين.

ثم أنواع الرقص كثيرة، المشهور منها ثلاثة:

الأول: الفلس، وهو مفتاح الأنواع، ففي السهرات والأعياد أول ما يبدأون به، وكيفيته أن يأخذ رجل امرأة فيضع يده اليمنى على خصرها واليسرى في يدها اليسرى، وهي تضع يدها اليمنى على كتفه، ثم يلفان بحسب القانون الذي يضرب عليه القانون أو غيره من الآت المويسيقى، ويتولد من هذا النوع نوع يسمى البولكة «البسيطة»، و البولكة بالارتعاش بإمالة الرأس وإرعاش الجسد بغاية الصناعة، وهو بالعذارى [95/ظ] أليق خصوصًا بالهيف لا بالسمان.

الثاني: الكدريل الفرنساوي، وهو التابع للأول، ففي العادة يرقصونه بعد الفلس، وهو أن يجتمع الراقصون، كل رجل مع امرأة وفي مقابلتهما كذلك زوجان أو أكثر في طول المقعد، وكذلك في العرض، وهو مركب في ست صور في جمعيها يبتدئ الراقصون الذين في الطول. فإذا فرغوا من أول صورة بدأ الذين في العرض، وهكذا.

* الأولى: يمر كل زوج من الراقصين إلى مقابله، ثم يرجع إلى موضعه بحيث أن يتزحزح كل من الراقص والراقصة، ثم يتقدمان ويد كل واحد في يد الآخر اليمنى في اليسرى وعكسه، ثم يلفان في محلهما دورة، ثم تذهب الراقصة فتأخذ بيد الراقصة المقابلة وتلف معها لفة، ثم يأخذ الراقص راقصة غيره ويلفها في موضعه، ثم تجيء راقصته فيمسكها بيده، ويذهب إلى الموضع المقابل ثم يرجعان إلى محلهما.

* الثانية: أن تذهب امرأة نحو الطرف المقابل إلى نصف المقعد، ثم تقهقر قليلاً، ثم تذهب كذلك إلى حيث المقابلون لها، ثم تكر راجعة، فقبل وصولها يمشي من ترقص معه أمامها قليلاً لملاقاتها، ثم تضع يديه في يديها على ما قدمنا، ويلفان لفة، ويفعل مثلها رجل من الطرف الآخر يقابلها، وعند رجوعه تقابله راقصته، فتمشي له قليلاً ثم تضع يديها في يديه، ويلفان لفة، ثم تذهب الأمرأة الأخرى، ويقابلها الرجل الآخر، فيتم أن كل رجل وامرأة رقص أمام مقابله.

* الثالثة: أن تذهب امرأة إلى المقابل ثم تكر راجعة إلى نصف المقعد، وتأخذ بيدها اليمنى راقصها وبيدها اليسرى الرجل الآخر الذي يفعل مثلها، ويكر راجعا ويأخذ بيد راقصته، ثم يمشي [٩٦/و] الزوجان قليلًا، ثم يفترق كل زوج، فترقص المرأة أمام الرجل المقابل بأن تتقدم ثم تتأخر وهو كذلك ثلاث مرات، ثم تأخذ يد راقصها وتذهب إلى المقابل، والرجل الذي أمامها يأخذ راقصته ويذهب إلى المقابل، ثم يرجع كل إلى موضعه ثم يعاد ذلك، فيبتدئ الرجل والمرأة الأخرى على نحو ما تقدم.

* الرَّابعة: أن يأخذ الرجل بيد راقصته ويرقص معها إلى الطرف المقابل ويقف قليلًا، فترجع الراقصة المقابلة معها، وهو يمر بينهما ثم يتقدم لراقصته ويلفان وكذلك الآخران، ثم يأخذ الرجل الثاني بيد راقصته ويفعل كالأول.

* الخامسة: أن يأخذ الرجل بيد راقصته، ويذهب بها إلى الطرف المقابل فيأخذها الآخر على شماله وراقصته على يمينه، ويرقص معها بأن يتقدم ثم يتأخر ثلاث مرات، ثم يأتي الرجل الأول فيأخذ راقصته ويرقص معها دورًا، ثم يرجعان، ثم يفعل الرجل الآخر كالأول.

* السَّادسة: كالأولى، إلا أنه تارة قبل ذلك يمشي كل زوج، ويد كل راقص في يد راقصته، وتارة يمنى الرجل على خصر المرأة ويسراها على كتفه إلى نصف المقعد، ثم يكر راجعًا.

الثَّالث: المزورق، وهو أن يجتمع أزواج كثيرة، و يجلس كل راقص مع راقصته كالحلقة، ثم يبتدي رجل مع امرأة، فيرقص معها بطول المقعد، ثم يكر معها راجعا، ثم يلفان واضعًا يده على خاصرتها، ثم الثاني والثالث، وهكذا إلى الآخر، لكن يحدثون بعد كل مرة شيئًا بأن تجلس امرأة في الوسط، ويأتي رجل تعينه يسمى «كاتم السِّر» فيقف عندها، ثم راقصها برجل وامرأة، فإن كان ذلك الرجل هو الذي

تريد قامت ورقصت معه، ورقص رجلها مع المرأة المجلوبة، وإن كان غير الذي تريد، ويعلم ذلك بإشارة كاتب السِّر أن لا رقص ذلك الرجل مع المرأة المجلوبة، وأتى رجلها برجل وامرأة، وهكذا حتى يأتي الرجل الذي تريد أو بأن ترمي امرأة منديلها إلى الهواء [٩٦/ظ] فمن خطفه رقص معها، إلى غير ذلك، وليس في كل هذا ما يخلّ بالأدب، ولا يشم رائحة الفجور، وإنما هي عوائد وأخلاق لإراحة النفوس من الإرهاق، ولا يصدق ذلك إلا من رأى، وإن صد غيره ونأى:

وإذا لم تَـــرَ الهـلالَ فسـلِّم لأنـــاسٍ رأوه بالأبصـــار

الرَّابع: المسخرات، جمع مسخرة، وأخذ الجمع من لسان العربي، وسمي به في لسان الرُّوس هذا النوع من الرقص، لكن أبدلت الخاء بالكاف واخترعه كرانتيس في سنة ١٥٤٠ لأجل إظهار حركة الشجعان، وأول من قاده في الرُّوسيا بطرس الكبير، يعني بهذه الكيفية، وإلا فالمسخرات في الميلاد موجودة في الرُّوسيا من قبل، ويكون رقص المسخرات في قصر الشتاء ومجمع الأعيان، وفي التياتر الكبيرة خصوصًا في عيد الرفاع، ولبس المسخرات مفتخر، ويلبسون المسك يعني جلدًا مصورًا، وجهًا قبيحًا أو شيئًا من حرير يغطي الوجه، ومن أراد الرقص رقص، ومن لا تفسح، ويتوصل بهذه الطريقة إلى الكلام مع النساء؛ لأنهن غير معلومات فيقول الرجل: أنا أعرفك وينزل عليها، وكذلك النساء، وربما كان وسيلة للتعرف بالكبار، وتارة يكون هناك من النساء قليلات الاحتشام، ولما رأيت ذلك أول مرة تذكرت مصر، فإن النساء مغطات الوجوه إلا أن كثيرًا بلا مسك، والقيصر يحضر المسخرات ويمشي مع امرأة لابسة مسكا، وكذلك العائلة الملكية، ويزيدون تارة في المسخرات القمار وهو تحف ظريفة، وطرف لطيفة يبيعونها على البخت لمصلحة الفقراء، فيكتبون أوراقًا صغيرة وينمرونها ويبيعون كل ورقة بربل فضة مثلًا، فمن غلب أخذ ومن لا فلا، وتارة يفعل هذا استقلالًا.

الخامس: لعب الورق: جرت العادة عند الرؤس لأجل تقضية الزمان، أنهم إذا جاؤوا عند المعارف يلعبون الورق فيجلس اللاعبون [٩٧/و] ثلاثة أو أربعة على سفرة، ويعينون أولاً قدر الدراهم لكل ضربة كبيك فضة، أو عشرة أو أكثر، بحسب مقام اللاعبين، ثم إذا فرغ اللعب أعطى المغلوبون للغالبين، ويوضع من تلك الدَّراهم ثمن الورق الذي يصنع في فبريقا لفائدة بيت اللقطاء، ثم إذا طلبوا اللعب ثانيًا أو طلب غيرهم أحضر الخادم ورقًا آخر جديدًا، ودائمًا يحضر زوجًا؛ لأنه إذا فرغ دور أخذوا الورق الذي لا يلعب به، وفرقوه بينهم اثنين اثنين، وفي ذلك الوقت يخلط الورق الذي لا يلعب به لئلا يضيع الوقت في غير اللعب، وهذا قمار محض، إلا أنه في هذه البلاد سار بين العباد فقل مَن لا يلعب حتى من النساء والبنات، ويعدون ذلك من أحسن المسليات، فإن الضيوف إذا اشتغلت مع بعض في الورق كفت أصحاب البيت مؤنة الملاطفة خصوصًا إذا كثرت الضيوف.

وفي بعض البيوت ينضم إلى لعب الورق غيره من المسليات مثل الرقص، وتارة لا، فيقضون الليل في هذا النقار والقمار، وإذا نظرت لهم في وقت اللعب نظرت غالبًا إلى معركة صغيرة، والمغلوب يتأوه ويتألم مع أنه يتكلف في إخفاء ذلك، وربما سبب تغير الخواطر، ومن فرغ كيسة ربما لعب بالشك، وربما ضيَّع في اللعب ضِيَاعَه، وجلب الطمع له ضَياعَه، واللعب المشهور الآن يسمى بريفيرانس، وهناك لعب آخر يسمى «القيست» أقل شهرة.

وأنواع لعب الورق لا تحصى، منها نوع يسمى «ميلنيك» يعني الطاحونة؛ لأنه يدور طويلًا، ومنها نوع يسمى «دورسكي»، فمن غلب يسمى«دورك» يعني: مغفل، وهذان في الغالب بين الصغار والعوام، وهناك لعب للنساء يسمى «پسيانس» يعني: الصبر وهو نوع من الحرز، [٩٧/ظ] فيكهَن بالورق للآخر، وقد اتفق أن حرزت لي بنت بالورق، فقالت: يصلك مكتوب عن قريب، وبالاتفاق وصلني المكتوب وأنا في بيتها، أتاني به بعض الضيوف، فأريته إياها، ففرحت، وقالت للناس: انظروا: صدق كهانتي، ولذا قلت من قصيدة في جواب ذلك

الكتاب لمن أرسله لي موزَيا:

وقد وردت لي من لديك صحيفة	وقد سبقت لي من فتاة بها البشرى
ومن عجبٍ جاءت إليَّ ببيتها	فحقَّقْتَ إثبات الكرامة للعذارى

وقد كتبوا كثيرًا في أصل لعب الورق، لكن ما كشف أحد الحقيقة في اسم المخترع، والنَّاس المنسوب إليهم اختراعه، قال ريل الخوري: يعرف لعب الورق في إسبانيا في نحو ثلث القرن الرابع عشر من الميلاد، وأيَّد رأيه بمنع الفونس ملك كستيل لعب الورق بالفلوس سنة ١٣٣٢، وآخر ينسب ذلك إلى النيمساوية كان جبيلينا، أتى بالورق من قدماء المصريين، ومع ذلك ادعى عدة من العلماء ببعض أدلة أن فرانسا كانت مهد الورق.

وبعض المؤرخين أوصل أصل هذا اللعب إلى مملكة شرل السَادس، وأن اختراعه كان في زمنه لأجل تسليته في وقت راحته وفراغه، وعلى قول هؤلاء المؤرخين، فاللعب المسمى «بيكت» اختراع زمن شرل السَابع وداود ملك بيك في كلامهم كناية عن شرل السَابع، وأما شرل ملك كور فشرل ماني، وأمَا سيزار ملك كرو، واسكندر ملك ترِقْل فما حققوا فيها شيئًا، ويظهر أنهم أرادوا بها ملكين من ملوك فرانسا؛ لأن بشعر العيرة الطويل والنعال المصورين بهما لا يشبهان بالكلية شجعان رومة ولا مقدونيا الذين لهما اسمهم، ويؤيد ما ذكرنا أنه يوجد في الورق القديم المحفوظ زهر الزنبق [٩٨/و] في عباءة الملكين، وهذا علامة الفرنساوية، وقد قلت:

هيفاء افرنجية قد رَنَت	تخطر في الحلي والاستبرق
فالآس والنسرين في شعرها	والورد والزنبق في القرطق
سألتها نسبة آبائها	قالت ألم تنظر إلى الزنبق

وأرجين ملكة تريفل كناية عن زوجة شرل السابع ماريه دو نجو، وأما راسد ملكة كرو فهي اكنيس سؤرل، وأمَا پالاس ملكة بيك فهي چان دارك، وأما چوديت ملكة كور فهي القيصرة بهذا الاسم زوجة لويز لبئون يعني الطيب، وأمَا لاهير خادم كور فهو كناية عن قبطان كبير في وقت شرل السَابع.

وأما هيكتور خادم كرو فهو هوكتور غالودان شجاع في ذلك الوقت، وأما أوچير خادم بيك فكناية عن شجاع في أيام شرل ماني، وأمّا لانسلو خادم تريفل ففارس في ذلك الوقت، والخدام الأربعة المسماة في لعب الاسبانيول بالفرسان، كناية عن الأعيان والسبعات والثمانيات والتسعات والعشرات كناية عن العسكر، والآس كناية عن المال والصيد مأخوذ من الكلمة اللاطينية «آس» يعني «معاملة رومية» والاثنان والثلاثة والأربعة والخمسة والسّتة كناية عن العامة، ولذلك تسمى «الورق الأدنى» وما كانت في عهد شرل السّابع بل أحدثت بعده، وهذا اللعب كناية عن معركة تتقاتل فيها العسكر لحفظ الأعيان والملوك، لكن حربهم وإن أجدى لا يُرقّيهم إلى رتبة الملوك، كما هو عادة مخترعي هذا اللعب، بخلاف الشطرنج، فإن معركة ربما ترقى فيها البيدق إلى مرتبة الفرزان، ومجالسة الملوك كما هو عادة مخترعيه، ولله القائل ابن قلاقس الفاضل:

والصغير الكبير يسمو به السير ... فيصنو له الجليل الكبير
فرزن البيدق التنقل حتّى ... انحط عنه في فم الدست فيل

وأبو الفضل التميمي[1]:

دعني أسِر في البلاد ملتمسًا ... فضله مال إن لم يفر زانا
فبيدق الرُّخ وهو أصغر ما ... في الدست إن صار فرزانا

[٩٨/ظ] السّادس: جري الخيل: هذا من مقضيات الزمان اللذيذة، ومن نحو سنتين، بنى لذلك تياتر فيجرون على الخيل، ثم ينطون من فوقها على حبل ثم يرجعون، وتارة يرقصون عليها أنواع الرقص وبالجملة، فقد أدخلوا ذلك في التياتر، وصاروا يلعبون في كل أسبوع مرارًا، والناس يذهبون بكثرة لرؤية ذلك، وفي الصيف سباق الخيل في تساركي سلو لمن سبق الرهان، وكذلك في الشتاء على النيڤا، وربما تسابقوا في الزوارق صيفًا وخصوصًا الإنكليزيون.

(١) محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان التميمي، أبو الفضل. توفي ٤٥٤هـ ، وقيل سنة ٤٥٥هـ. الذهبي:تاريخ الإسلام١٠: ، ص ٦٤؛ والصفدي:الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج٤ ، ص ٦٧.

الفصل الثَّامن

في تقدمهم في العلوم والفنون

لم تـزل الروُس يومًا فيومًا تنافس غيرها مـن الأوربيين في العلوم والصنائع، حتـى تقدمت في ذلك، ولهم كما قدمنا أكديميـات للعلوم والتصوير والطب وغـير ذلك، ولهـم المدارس العظيمة، مثل المدرسـة القيصرية الكبرى المسـماه «الأونيڤر سـتيت»، وفيهـا تتعلم التلامـذة الذين فرغـوا من التَّعليـم اللازم في المـدارس الأخرى، فيمتحنـون للدخول في المدرسـة الكبرى، فـإن أجابوا دخلوا، وهنـاك يبقون أربع سـنين، يتعلمون الفقه، والديـن، والرياضيات والأدبيات، والمنطـق، وعلـم المعـادن، والحكمـه، والطبيعـة، والجغرافيـا، والتواريـخ، والألسن، حتَّى الألسن الشـرقية: العربي والتركـي والتتاري والفارسي والأرمني والكرجي، وفي كل سـنة يعمل لهم بحث، فـإن أجابوا نقلوا إلى ما يلي، وإلا بقوا، فحينئذ بها تحسب السنة لهم.

وعـدة المدارس الكبرى في الروُسـيا سـتة: واحـدة في بتربـورغ، والثانية في موسـقو، والثالثة في خاركوف، والرابعة في قزان، والخامسـة في كييف، والسَّادسـة [٩٩/و] في درپـات، وهنـاك مـدارس أخـرى تسـمى «اينسـتيتوت» و«ليسي»و«غيمنازيا»، ومكاتب للأطفال ما يبلغ ٢٣٠. وفي كل سنة يزداد ذلـك، وفي المكاتب والمـدارس الصغـرى يعلمـون البنات أيضًـا كالصبيان، فيتعلمـون النحـو، والمنطـق، والرياضيـات، والأدبيـات، والتاريـخ، والألسـن، والرقص، والتصوير، والمويسيقى، وتزاد البنات: الخياطة وشغل الطارة والإبرة والمنسج، وتزاد الصبيان: لسان اللاطيني والرومي القديم.

وقد حضرت غير مرة بحث الصبيان والبنات، وعجبت من حُسن إجابتهم عن سـؤال الباحثين، فالبنات عالمات حقيقة، وبعلمهن يعشـن خصوصًا إذا كانت

الأقارب فقراء، فتعلم البنت التي فرغت التَّعليم أولاد الكبار بماهية سنوية تليق بحالها، وربما أعانت أقاربها، وبعض هذه المدارس ميرية، وللصم والبكم، الذين يعقلون مدرسة الصمّ البكم فيها يتعلمون العلوم والتصوير والرقص والألسن، لكن لا يتكلمون إلا بالإشارة، ولكنهم يكتبون كغيرهم ويرقصون كغيرهم، ومن عجيب ما رأيت أني حضرت ليلة رقص عند رجل من الصم والبكم، فكان كثير من الراقصين والراقصات منهم، وكان اللاعب على القانون أعمى، فصاروا يتعجبون منه كيف يعرف اللعب وهو لا ينظر، وصار يتعجب منهم كيف يرقصون على المويسيقى وهم لا يسمعونها:

ولم يرَ عيبه أحدٌ ولكن يرى في الناس كلهم العيوبا

وكذلك للقطاء بيت فيه يربون، لكن لا كتربية الأكابر، بل كتربية العامة، فالذكران يكونون عسكرًا، والإناث يخدمون بنات الأكابر المتعلمات في المدارس الميرية، وهذا من الخيرات والمصالح العامة، إذ اللقيط منبوذ لا كافل له فمن لم يكفله بيت المال فمن كافله؟ [٩٩/ظ] وهب أنه ابن حرام، فماذا ذنبه؟ والعجب أنه إلى الآن لم يُعمل بيت للقطاء في ديار الإسلام مع تقدم التمدن واقتضاء الشريعة، وهذا مثل المارستانات والقِشل والاوسبتاليات التي هي كثير في هذه الدِّيار، وكذلك في ديار الإسلام الآن بمعونه الدولة العلية.

خرجنا من ذِكر العلوم والفنون إلى بيوت اللقطاء وذوي الأمراض والجنون:

ولربما ذكَرَ المحدِّثُ بعض ما ليس النديمُ إليه بالمحتاجِ

وثمرات العلوم الكسب بها والفخر والرتب، فمن تعلم خدم بعد فراغ التعليم في تعليم الآخر، وربما كتب شيئًا وبثه في الجرنالات أو طبعه مستقلًا، فيحصل له مدخول من ذلك، ولا تستنكف النَّاس حتى الأغنياء من ذلك، كما كان في قديم الزمان، ومدخول الأدباء كثير في الروُسيا، وفي فرانسا أكثر مثلًا، من كتب عندهم غناء وقبل في التياتر، يعين للنَّاظم في كل مرة يغني شعره جزء من محصول ذلك الدور، وأحد هؤلاء الكتاب مسيو سكريب، كتبَ في حياته بإعانه المشتغلين معه ٣٥٠ دورًا، وفي سنة ١٨٣٢ قبل منها

مدخولًا إلى مبلغ ١٤٨٠٠٠ فرانك، ومن ذلك الجرنالات وعددها الآن جاز الحد، ففي بتربورغ بعضها يومي مثل «نحل الشمال» ، و «السقط» و«أخبار بتر بروغ» وكلها روسية، ويكتب فيها زيادة على الأخبار بعض أدبيات، وبعضها شهري مثل «ابن الوطن» و«الكتابة الوطنية» و«المعاصر» و«كازيطة الأدب» و«خزانة الكتب للقراءة»، فكل شهر يظهر منها كتاب، وفي السَنة ستة مجلدات، وهذه كتب أدبية جديدة يكتبها أدباء العصر، ويظهرونها في قالب الجرنالات للتنشيط.

وهناك جرنالات شهرية للأطفال يكتبون فيها نبذًا من العلوم والحِكَم والحكايات المُسلية اللائقة بهم، وهناك جرنال فرنساوي ونمساوي، هذا مع قبول الجرنالات الغريبة من فرانسا والنيمسا وغيرهما، ومن ذلك تعلمهم الألسُن، ١٠٠/١ وبالرُوسي زيادة على معرفة لسانه يتعلم الفرنساوي والنيمساوي وتارة الإنكليزي والطلياني، وأمَّا اللاطيني والرومي فيتعلمون، ولكن قلَّ مَنْ يتكلم بهما، فيندر أن ترى رجلًا أو امرأة في مجلس لا يتكلم بالفرنساوي والنمساوي، حتى أن كبار الرُوس لهم زهادة في لسانهم، فتراهم يتكلمون بالفرنساوي، وبعضهم يتكلم بالرُوسي، لكن يحليه دائما بالجمل الفرنساوية في الأثناء، ومنهم من يتعلم الألسن الشَرقية، وكثير من الرُوس مَن مهَر في هذه الألسُن، وبرع فيها، فكم ترى في بتر بورغ وفي الآسيا والأفريقا من يحسن ذلك منهم، وقد أغنوا دولتهم عن اتخاذ الغرباء ترجمانات كما كان في السابق.

الفصل التَّاسع

في سكنى الروُس ومعيشتهم ومركوبهم

اعلم أن بيوت الروُس مبنية غالبًا بالحجر، وتارة بالخشب، لكن مع الإحكام بحيث تقي من البرد، وهي أدوار ثلاثة أو أربعة أو خمسة، وفي كل الأدوار حتى في الأول الشبابيك والبيوت التي في الحارات المعتبرة في دورها الأسفل الدكَّاكين والثَّاني مسكون بالنَّاس، وكل مسكن مستقل وحده، مثلاً قد يسكن في البيت الواحد عدة عائلات مختلفات كل في مسكنه، وفي مدخل الباب أوضة صغيرة، فيها يقلع الداخلون فراويهم وعباءاتهم، ثم منها يدخل إلى أوضة كبيرة فيها القانون، ثم منها إلى أخرى تسمى مقعد الضيوف، وأخرى للطعام، فلا يأكلون حيث يجلسون غالبًا، وأوضة أخرى للاشتغال، وأخرى للنوم، وللكبراء أكثر، وللفقراء أقل، وأثاثهم الكراسي من خشب الجوز أو الخشب الأحمر، وربما بطونها بالجوخ ونحوه، وتارة يعملونها من الحرير ويحشونها بشعر الخيل، ثم السُفر وبعضها مستطيل مثل سفرة الكتابة والسُفر الموضوعة أمام المرآة وبعضها مستدير مثل سفرة الطعام[١٠٠/ظ] ثم المرآة، وفي كل أوضة اثنان أو أكثر بحسب اتساع المحل وضيقه، وهي طويلة.

وفي كل أوضة مدخنة محكمة تدفئ كل يوم في أيام الشتاء، وبسبب ذلك الروُس متعودون على الدفا في البيوت، ففي الأوضة نحو أربعة عشر درجة حرارة، فلا عجب حينئذ إذا شكوا في مصر أو اسلامبول البرد لعدم حرارة الأوض عندنا إلى هذا القدر في الشتاء، وعدم المداخن إلا المنقد الذي لا يدفئ التدفئة الكافية كما أنه لا عجب إذا شكوت من الحر في بتربورغ؛ لأن حرها وإن قل مضعف جدًا بسبب خلوة من الرِّيح والنَّسيم الرطب، وبهذا السبب بعينه

لا يمكن السكنى في بتربروغ في الصيف، فترى الناس يفرون منها إلى الرِّيف والضواحي والبلاد الغريبة.

وبيوت ضواحي بتربروغ محكمة إلا أنها ليست كإحكام بيوت المدينة مثلًا، في المدينة تضاعف الشبابيك من الخريف إلى الربيع، ثم ترفع الشبابيك الزائدة، والمداخن مبنية بقطع البلاط المدهونة بالأبيض بحيث لا تشوه الأوض، ومن تحسين البيوت أنهم يلصقون على الجدران أوراقًا طويلة عريضة منقشة، كل على حسب ذوقه، وبعضهم يكتفي بالتبييض بأي لون يعجبه، ويعملون للشبابيك زيادة على الستارات البيض ستائر طوال من الحرير أو الجوخ أو الشَّيت يمسكونها بأيد من التنباك و نحوه.

وربما علقوا على الجدران صورًا جميلة، وعلى سفرهم أشياء لطيفة مثل الشمعدانات والقناديل الفضة، أو التنباك والدوى الظريفة، والتُّحف النفيسة، واللعب البديعة، وربما زينوا الشبابيك بقصاري الأزهار، وربما فعلوا نحو عريش من الأزهار في وسط الأوضة ويبسطون السجاجيد أمام السُفر والدواوين [١٠١/و] النقَّالة والبيوت مبلطة بالخشب، ويغسلونها كل يوم سبت، وتارة يصقلونها بالشمع الإسكندراني، فتكون براقة لَمَاعة، وهذه البيوت بعضها بالكراء وبعضها بالملك، فمن ليس له بيت اكترى، والكراء غال في هذه البلاد خصوصًا في المضايف المعدة للمسافرين.

ثم الغالب أن يأكل الشَّخص في بيته بأن يهيىء له الطبَّاخ أو الطبَّاخة الغداء، وأكلهم الشوربة، و يحب الرؤس شوربة الكرنب، وقبل الشوربة يشربون العرقي قليلًا، وربما أكلوا فسيخًا أو جبنًا لجلب الاشتهاء، ثم بعد الشوربة الخضار و نحوه، ثم الكباب، ثم الحلو الفطير أو نحوه، وفي مدة الطعام يشربون الرَّاح كالماء القراح، وأكلهم بالسكَّاكين والشوك والمعالق، وكل يأكل في صحنه، ويأكل بسكينته وشوكته ويشرب من كبايته وقدحه، فإذا فرغوا من أكل كل شيء غُيرت الصحون وهكذا إلى آخر الطعام.

وفي الأعياد يشربون خمر الشامباني في أقداح كبار لا في فناجين كفناجيننا، لكن يشربونها بالسُكر والحليب، وفي الصَباح منهم من يفطر عليها، ومنهم من يفطر على الشاي أو الشوكولات، وفي المساء يشربون الشاي بالحليب أو الليمون أو هكذا، والشاي لازم جدًا في هذه البلاد خصوصًا في السفر، فهو يقوي البدن وينعش الجسم، وفي أول شربة يمنع النوم لكن بعد التعود عليه لا يضر، ويشربون الدُخان في السبقات، ويشربون السيجار وتارة الدخان في الورق الملفوف، وندر شرب الشِيشة إلا عند الفرس، فهم المتوحدون في هذه الدِيار بتعاطيها، والعاملون بما قيل فيها:

هات اسقني التنباك من نرجيلة ... نغماتها تُغني عن القانون
تغني المزاج عن العلاج وربما ... يغني بها الآسي عن القانون

القانون الأول: آلة المويسيقى، والثاني: كتاب ابن سينا في الطب، وقد اتفق لي جناس في القانون تامًا ومركبًا، فقلت مواليًا:

موال نعماني

في وصف حاجب على الألحاظ القانون
سطرت نوبة على السنطير والقانون
يا اللي رضابك شفا يروي عن القانون
ارحم متيم غدا جسمه يشابه عود
وزاد غرامه ولا حدش لسقمه يعود
ما به صدود من حبيب قلبه وخلف وعود
ما به عذول في غرام زاد على القانون

قد استطردت في هذا الباب لأنه باب كيف مع أني ما خرجت عن القانون.

وإكرام الضيوف في المساء بالشاي والدخان وأنواع الفواكه والحلوى، وفي الصبح تارة بالقهوة [١٠١/أ] والدُخان، وإذا جاء الضيف فلم يجد صاحب البيت ربما قبلته امرأته وجلست معه حتى يجيء زوجها، وإن كان معرفة لها ولا نكير في ذلك فللنساء المحل الأول، وهن المدبرات لأمور البيت، الملمات لشعث الزوج:

إذا لم يكن في منزل المرء حُرَّةٌ تدبره ضاعت مصالح حاله

فلهذا لا يستعجلون في التزوج حتى يعرف طباع الزوجة وخلائقها فإن سيئة الخُلق تمُل مُمِل فلهذا ترى كثيرًا يعيشون عُزابًا و يخافون أن يلقوا من الزوجة بدل من العُذوبة عذابًا، كما قال الكيا أصفهدوست الديلمي[1]:

[الكامل]

ياطالب التزويج إنك بالذي	تبغيه منه جاهل مغرور[2]
هل أبصرت عيناك صاحب زوجة	إلا حزينا ما لديه سرور؟
لا تبغ في الدنيا نكاحًا لا زنا[3]	وافعل بها ما يفعل الزنبور
أو ماتراه حين يدرك فرصة	يدنو فيلسع[4] لسعة ويطير

ولهن على السُفرة المجلس الأول، وأول ما يُعطى الأكل لهن، وكذلك في الكنيسة، وفي مجالس الرَقص، ويستلطف أن يأخذ الرجل بيد امرأة لإعانتها على المشي أو إصعاد السَلالم، وربما قُبلت أيديهن، وتارة يكون ذلك في القصر، فتأتي الضباط والكبار، ويقبلُون يد الأميرة، والعادة طبيعة ثانية، ولعنان القلوب ثانية، ثم مراكبهم العربات الثَمينة بمحلَين أو أربعة مقفولة، وتارة مكشوفة، وهي الكاروصات المستعملة في الربيع والصَيف غالبًا، والدروشكي بمحل واحد، واللنيكة بمحلين، وكل ذلك يوجد للكراء، إلا أن الكبراء والأغنياء يقتنون ذلك ويتأنقون فيه، و يجر العربة فرسان أو أربعة، وأمَا الدروشكي فواحد، وهناك عربات كبيرة للسفر، وعربات لنقل الأمتعة في غاية الحقارة، وهناك عربات طريق الحديد يجرها البُخار، وذلك إلى تسارسكي سلو، وربما ركبوا الخيل خصوصًا أرباب السَيف، وتارة تركب النساء الخيل، لكن حينئذ يلبسن برانيط الرجال ويسمين «أمَزون»[5] وبنات القيصر مشهورات بذلك، وكذلك بنات الكبار.

---

(١) أسبهدست بن محمد بن الحسن بن شيرويه الديلمي، أبو منصور الشاعر،توفي سنة ٤٦٩هـ. الصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج ٨، ص ص ٣٨٤– ٣٨٥؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، مصدر سابق، ج ١، ص ص ١٦٢. ١٦٣.

(٢) في فوات الوفيات: معذور.

(٣) في فوات الوفيات: لازمًا.

(٤) في فوات الوفيات: ويلسع.

(٥) أي : المرأة المسترجلة.

وفي أيام الشتاء يركبن الجرار، وهو عربة بلا عجل، لكن يزلقها الثَّلج فتمشي بالعجل وهو أسهل المركوبات، [١٠٢/و] وفي أوّل هجوم الثَّلج يتسارع الناس إلى ذلك زرافات ووحدانا، ويسدون عن نفوسهم بذلك أحزانًا، وقلت:

في الثلج أغدو للصفا ... في عربات الزحلقة
فبتر بورغ كلها ... حصيرة مزحلقة

في لسان الروُس

أصله الصقلب، ولسان الروُس غنيٌّ جدًا كالألسنة القديمة، وفيه الإعراب كما في لسان العربي، فالمبتدأ والخبر لا تغيير فيها، بل على أصل الكلمة، المضاف إليه مفتوح، والمجرور مخفوض، والمفعول تارة منصوب وتارة كالمبتدأ، والمعطى له مضموم، إلى غير ذلك مما فُصِّل في نحوهم، وفعل الكون لا يستعمل في الحال بل يحذف كما في العربي، فتقول: يَا راضٍ يعني أنا راضي، وعندهم علامة المؤنث في الاسم والوصف تارة كالعربي، مثلاً: الكساندره، يعني: اسكندره[1] وتسهل الترجمة من ألسننا الشَّرقية إليه، وبالعكس للموافقة في كثير من المعاني والتصورات، وأمثلتهم موافقة لأمثلتنا كثيرًا، وفي حروفهم الخاء، وعندهم أصوات الحروف الغليظة كالصَّاد والطاء، فلهذا يسهل عليهم التلفظ بالعربي أحسن من غيرهم من الأوروبيين، ومما يوافق فيه العربي قولهم للشخص في الإخبار عن موت بعض الأشخاص «امر لك بالمعيشة زمانًا طويلاً»، وهذا بالكلية، مثل قولنا في هذا المعنى: «تعيش»، وفيه كلمات كثيرة أخذت من لسان التاتار والنيمساوي والفرنساوي، وتركيبه سهل، فيجوز تقديم الخبر على المبتدأ والمفعول على الفعل والفاعل إلى غير ذلك.

ولا يستعملون للدلالة على الآلة والواسطة ولا للدلالة على مَن له الشيء المسمى عندهم داتلني يعني: المعطى له [١٠٢/ظ] حرفًا، بل يدل عليه بتغيير الكلمة بنوع مخصوص، وأشعار الروُس بديعة للغاية وبعضها كأشعارنا، وقلت مترجمًا شعرًا روسيًا في مدح شجاع:

---

(١) بالهامش الأيسر من المخطوط كتب المصنِّف: راضه يعني: راضية.

إذا ركب اللجّات جاشت مياهها وإن مرَّ في طود تقعقع جلده
وإن طاف ما بين البلاد تدهدهت وترمي وراء السحب أبراجَها يده

وقلت مترجمًا:

الزهر إن جدَّ لا ينمو بغير هوًا والقلب إن شبَّ لا يحيى بغير هوى

وقلت كذلك:

لأجلها وحدها الآفاق نيرةٌ والبلبل الليل قد غنّى على الزَّهر
كالند عَرفًا ومثل البان قامتها لطيفة مثل وردٍ زِينَ بالخفر
سما الجنوب التي تزهو كواكبها تلوح من عينها الزرقاء للنظر

ومما ينبغي أن نتنبه له أن المترجم من لسان لا بد أن يلاحظ ما يكون مقبولًا في اللسان الآخر، وإلا غيَّر، كما فعلت في هذا الشعر الأخير، فإن الشَّاعر شبه في الأصل القامة بالنخلة الهندية، وهذا بديع في اللسان الروُسي، مُستهجَن في العربي، فلذا غيَّرْتُه إلى البان، والمؤدَّى واحد، وهنا حبست عنان القلم، قلت له:

يراعىَ كُفَّ الخوض فالبحر زاخرٌ ولاتتجارى قد جرى منك ما يكفى

واللّه أسأل، وبنبيه أتوسل، أن يكون هذا التعليق مقبولًا عند السُدة العلية والعتبة العثمانية، وأن ينظر إليه العلماء الأعلام بعين الإنصاف، وأن يحودوا عن سبيل الاعتساف، فما قصدي إلا التبصير، ولا مرامي إلا التذكير، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا باللّه عليه توكلت وإليه أنيب.

وقد تم بحمد اللّه تبييضه في يوم أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٦ من هجرة سيد المرسلين وأشرف النبيين عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسَلام، الموافق ذلك لأوائل كانون الثاني في سنة ١٨٥٠ من الميلاد، واللّه ولي السداد على يد مصنَّفه الفقير:

محمد عياد المصري الطنطاوي
ببتر بورغ